عاشوراء

الطريق إلى كربلاء

السيرة الحسينيّة الموجزة

إعداد وتنسيق:
شفيق محمد الموسوي

المركز الإسلامي الثقافي
مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام

PDF مكتبة نرجس
www.narjes-library.blogspot.com

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م

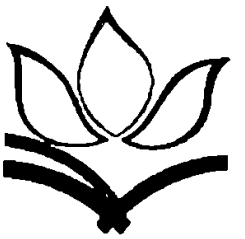

المركز الإسلامي الثقافي

لبنان ـ حارة حريك ـ مجمع الإمامين الحسنين عليهما السلام

هاتف: ٠١/٥٥٧٠٠٠ ـ ٠١/٥٤٤٤٠٢

خليوي: ٠٣/٥٦٥٠٧٤

❊ ❊ ❊

البريد الإلكتروني

sayedfadlullah@gmail.com

info@tawasolonline.net

info@fadlullahlibrary.com

❊ ❊ ❊

المواقع الإلكترونية ـ المركز الإسلامي الثقافي

www.sayedfadlullah.org

www.tawasolonline.net

www.fadlullahlibrary.com

youtube/tawasolonline

youtube/sayyedfadlullah

Facebook:

SayyedFadlullah

مكتبة العلّامة المرجع السيّد فضل الله العامة

تواصل أون لاين

الطريق إلى كربلاء

السيرة الحسينيَة الموجزة

إعداد وتنسيق
شفيق محمد الموسوي

المركز الإسلامي الثقافي
مجمع الامامين الحسنين عليهما السلام

المقدّمة

«الطريق إلى كربلاء» كتابٌ يشرح السّيرة الحسينيّة بإيجازٍ ووضوحٍ بعيداً عن التعقيدات والاستغراق في الأحداث، بحيث إنّ القارئ يستوعب حركةَ الإمام الحسين عليه السلام وأسباب ثورته، ومراحل سَيره من المدينة إلى مكّة، ومن مكّةَ إلى كربلاء وما جرى معه عليه السلام حتى استشهاده مع أهل بيته الأطهار وأصحابه الأخيار والأبرار...

وقد اعتمدنا في كتابة هذه السّيرة على كتبٍ عدّة ومصادرَ موثوقةٍ ومراجعَ معتبرةٍ مستفيدين من المنهجيّة العلميّة والتاريخيّة في عرض الأحداث والوقائع لكتاب (الإمام الحسين بن علي الشهيد) الصادر عن دار التوحيد ـ الكويت عام ٢٠١١ م في طبعته الثالثة.

ونحن إذ نقدّم هذا الكتاب، فإنّنا نأمل أن نكون قد قدّمنا مادةً جديدةً ومتميّزةً عن ثورة الإمام الحسين عليه السلام تستفيدُ منها الأجيالُ، وتكون لهم درساً وعبرةً في مسيرتهم الحياتيّة... سائلين المولى القبولَ والتوفيقَ... وهو حسبُنا ونعم الوكيل...

مدير المركز الإسلامي الثقافي

شفيق محمّد الموسوي

محرم الحرام ١٤٣٦ هـ

ت١ ٢٠١٤م

عليٌّ عليه السلام في مواجهة أعداء الحقّ

عندما عادت الخلافة إلى أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام بعد مقتل عثمان بن عفّان، وصارت له مقاليد الأمور، وحكم الأُمّة كلّها بالعدل والسويّة ورسم المنهج الإسلامي القرآني للحكم الإسلامي الصالح، وساوى بين الفقير والغنيّ، وبين الحاكم والمحكوم، ولكنَّ بعضاً ممّن آثروا حبَّ الدنيا على الآخرة، كان وَقْعُ العدل والمساواة وتحكيم شرع الله صعباً على قلوبهم، فرفعوا السيف في وجه العدل الذي مثّله عليٌّ عليه السلام، مما اضطرّه أن يخوض معهم حروباً، فكانت حربه في صفّين ضدَّ معاوية الذي رفض البيعة لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام واغتصب الحكم في بلاد الشام جاعلاً من نفسه خليفةً على أهلها، وكانت الحرب ضدّ طلحة والزُّبير ومعهما عائشة أمّ المؤمنين في موقعة الجمل، وكانت حرب النهروان ضدّ الخوارج.

وفي هذه الحروب قضى على المتمرّدين في موقعة الجمل، وانتصر على الأمويّين الذين مثّلهم معاوية في حرب صفّين، هذه الحرب التي انتهت بخديعة التحكيم وكانت لمصلحة معاوية بمكيدة دبّرها عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري والتي قضت أنَّ الخليفة هو معاوية وليس علياً عليه السلام. وعلى إثر ذلك خرج من جيش الإمام عليّ عليه السلام فئةٌ سُمّيت بالخوارج كانت تُناصر الإمام عليه السلام ثم انقلبت عليه بعد مؤامرة التحكيم.. وقد بدأت فئة الخوارج هذه تخطّط لاغتيال أمير المؤمنين عليه السلام واغتيال معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، وهذه الفئة وإنْ فشلت خطّتها في اغتيال المذكورَيْن، فإنَّ خطّة الاغتيال لعليّ عليه السلام قد نجحت على يد أكبر مجرمي ذلك العصر وهو عبد الرحمن

بن مُلجَم المرادي، وذلك في التاسع عشر من شهر رمضان عام ٤٠ للهجرة، فخسرت البشرية باب مدينة عِلْم رسول الله ﷺ والذي كان قرآناً ناطقاً يتحرّك بين الناس، قام الإسلام بسيفه، وشكّل النموذج الإسلامي الأرقى عِلْماً وجهاداً وعملاً وقائداً وقدوة صُنعت بعين الله تعالى وعلى يديّ الحبيب المصطفى ﷺ..

وهكذا انتهى الحكم الإسلامي العادل الذي استمرّ بقيادة عليّ بن أبي طالب عليه السلام على مدى ثلاث سنوات وبضعة أشهر.

اغتصاب الخلافة وصُلح الإمام الحسن عليه السلام

بعـد استشهاد الإمام عليّ عليه السلام تسلّم الإمامة من بعده ولده الإمام الحسن عليه السلام، ورغم إيمان المسلمين بقيادة الإمام الحسن عليه السلام كونه الخليفة الشرعي بعد أبيه، فإنّ معاوية بن أبي سفيان أعلن نفسه خليفة على المسلمين من الشام، وكتب إلى الإمام الحسن عليه السلام الذي كان في المدينة حينها يطالبه بأنْ يتنازل له عن الخلافة، وإنْ لم يقبل فإنّ أمامه الحرب والقتال.

ولم يرضخ الإمام الحسن عليه السلام لطلب معاوية، وأعلن الحرب عليه، واشتبك في معركة ضارية معه، ولكنّ خيانة بعض قادة جيشه ودفع الرشاوى لهم مِن قِبَل معاوية، جعلت الكفّة العسكرية تميل لصالح معاوية، إضافةً إلى قناعة الإمام الحسن عليه السلام بضرورة حقن دماء المسلمين، مع ملاحظته عليه السلام للمخاطر التي تشكّلها دولة الروم في حال بقي الصراع العسكري قائماً بين المسلمين، حيث من الممكن أنْ تستغلّ الدولة الروميّة هذا الصراعَ القائم فتُجهز على بلاد المسلمين وتعمل فيهم تقتيلاً ودماراً.

ولذا، فإنّ الإمام الحسن عليه السلام وقّع معاهدة صلح لتكون مقدّمة لوضع إسلامي أفضل بعد موت معاوية، فاضطرّ عليه السلام إلى التجميد المؤقّت لحقّه بالخلافة وفق شروط واتّفاقيّات بينه وبين معاوية، ومن أبرزها:

١ ـ هذا ما صالَح عليه الحسنُ بن عليّ بن أبي طالب، معاويةَ بن أبي سفيان، صالحه على أنْ يسلِّم إليه ولاية المسلمين بشرط أنْ يعمل فيهم بكتاب الله وسنّة

رسول الله وسيرة الخلفاء الراشدين المُهتدين، وليس لمعاوية أن يسلّم الحكم من بعده لأحد[1].

٢ ـ وتكون الخلافة للحسن عليه السلام من بعده[2].

٣ ـ إنْ حدث أيّ مكروه للحسن، فتكون الخلافة من بعده للإمام الحسين عليه السلام[3].

ومن الشروط الأخرى، وهي موجودة في كتب التاريخ، أنْ يكفَّ ولاة معاوية عن التعرّض لسبّ أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وألاَّ يلاحقوا أتباع أهل البيت عليهم السلام، وأنْ يكون بيت مال المسلمين في الكوفة تحت ولاية الإمام الحسن عليه السلام يصرفه في حوائج المسلمين، ومن الشروط أيضاً ألاَّ يعمد معاوية إلى كيد المكائد ومحاولات القتل للحسن والحسين عليهما السلام..

وبعد أنْ كُتبت المعاهدة وأُقرّت من قِبَل الطرفين، وقف معاوية بين أصحابه ليعلن لهم ومن دون سبب يدفعه إلى ذلك سوى الطمع وحبّ الدنيا والبُعد عن نهج الله تعالى، وليقول: «ألَا وإنِّي كنتُ مَنّيتُ الحسنَ أشياءَ، وأعطيتُه أشياء، وجميعها تحت قدمي، لا أفي بشيء منها له»[4].

بعد ذلك دخل معاوية الكوفة وأعلن مجدّداً بأنَّ «كلَّ شرط شرطتُه للحسن فتحتَ قدميَّ هاتين» وأقدم بعد ذلك على تنفيذ مخطّطه الإرهابي، فقام بالتصفية الجسدية للكثيرين من أتباع أهل البيت عليهم السلام وقد أوصى أحدَ قادة جيشه، قائلاً له: «فاقتلْ مَنْ لَقيتَه ممّن هو ليس على مثل رأيك»[5].. وكتب إلى جميع ولاته

---

(١) ابن الصباغ المالكي ـ الفصول المهمّة ـ ص١٦٣ بتصرّف.

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص١٩١.

(٣) عمدة الطالب، ابن عنبة ص٦٧.

(٤) الإرشاد، الشيخ المفيد ج٢، ص٢٩٦.

(٥) شرح نهج البلاغة ابن أبي الحديد ج٢، ص٨٦.

في جميع البلدان: «أنظروا مَنْ قامت عليه البيِّنة أنّه يحبُّ عليّاً وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه»[1].

وقد قام معاوية بقتل رموز من الصحابة الأخيار، منهم، حجر بن عديّ، ورشيد الهَجَري، وعمرو بن الحمق الخزاعي وغيرهم.. واشترى الوعّاظ والفقهاء والعلماء بالمال وبعض الشخصيات الاجتماعية، فدان له جميعهم وتنكّروا للإمام الحسن عليه السلام.. وبعد كلِّ الشنائع التي ارتكبها معاوية على صعيد تحجيم دور الإسلام كفكر إلهيّ حضاري، وعلى صعيد ارتكابه للمجازر ضدّ المعارضين له أقدم على قتل الإمام الحسن عليه السلام من خلال مكيدة دبّرها مع جعدة بنت الأشعث زوجة الإمام الحسن عليه السلام التي وضعت السُّم في طعام الإمام عليه السلام.

(١) المصدر السابق ج١١، ص٤٥.

واقعٌ جديدٌ بعيدٌ عن جوهر الإسلام الأصيل

وعندما استتبّ الأمر لمعاوية وخضعت له البلاد الإسلامية، عمل على أنْ يورِّث الحكم لولده يزيد الفاسق، الشارب للخمر، المتهتّك وغير الملتزم بقواعد الإسـلام فـي الأوامر والنواهي، وبهذا فإنَّه يكون قد نقض كلَّ بندٍ من بنود الوثيقة..

وعن يزيد الذي أراد له أبوه معاوية أن يكون خليفة للمسلمين، يقول المؤرّخ ابن كثير: «رُويَ أنَّ يزيداً كان قد اشتُهر بالمعازف وشرب والخمر والغناء والصيد واتّخاذ الغلمان والكلاب، وما من يوم إلاّ ويُصبح فيه مخموراً»(١).

إنَّ قرار معاوية بتنصيب ولده يزيد خليفةً على المسلمين من بعده أثار استهجان الإمام الحسين عليه السلام كون معاوية نقض العهد بعدم تسليمه الخلافة للإمام عليه السلام، وهذا من بنود المعاهدة، حيث جاء فيها، أنَّ الخلافة من بعد معاوية للإمام الحسن عليه السلام فإذا أصابه مكروه، فإنَّ الخلافة تنتقل للإمام الحسين عليه السلام.. وقد رفضت بعض الشخصيات الإسلامية هذا التوجّه الذي أراده معاوية بتولية ابنه يزيد، ومنهم عبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وشخصيات من الصحابة أيضاً..

وقد أخذ معاوية البيعة لابنه يزيد من أهل الشام، وكتب إلى مروان بن الحَكَم في المدينة أنْ يأخذ البيعة ليزيد، فخطب مروان وأبلغ الناس بأنَّ معاوية يريد أنْ يستخلف عليهم ولده يزيد سُنّة أبي بكر وعمر، فقام عبد الرحمن بن أبي بكر

(١) البداية والنهاية ج٨، ص٢٣٦.

الصدّيق، فقال: بل سُنّة كسرى وقيصر، إنَّ أبا بكر وعمر لم يجعلاها في أولادهما ولا في أحد من أهل بيتهما[1].

واستطاع معاوية بدهائه أنْ يأخذ البيعة لابنه يزيد من كثير من الصحابة والتابعين ولم يبقَ خارج دائرة المبايعة إلاّ الإمام الحسين عليه السلام وبعضٌ ممّن لم يبيعوا دينهم وبقوا محافظين على الإسلام بنقائه وصفائه..

(١) تاريخ الخلفاء، السيوطي ص١٩٦ ــ ١٩٧.

.. وجاء دور الحسين عليه السلام

.. ويهلك معاوية بعد أن يسلّم السلطة ليزيد، ولكنَّ يزيداً بقي خائفاً على سلطته من قيام المعارضين له بثورة ضدّه، وقد كان يعرف تماماً تعلّق المسلمين بالحسين عليه السلام وحبّهم له، وهذا ما قد يعكّر عليه صفو حياته ويهدّد ملكه، لذا، ما إنْ تولّى الحكم بعد أبيه معاوية، حتى كتب في الأيام الأولى عند تولّيه السلطة إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان والي المدينة كتاباً، جاء فيه: «أمّا بعد فُخذْ حسيناً وعبد الله بن عمر وابن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليس فيه رخصةٌ حتى يبايعوا»[1].

تسلّم الوليد رسالة يزيد وقرأ فيها نعي معاوية وإعلان البيعة ليزيد وتكليفه بمهمّة سياسية شاقّة، ثمّ استدعى إليه مروان بن الحكم يستشيره في كيفية مواجهة الحسين عليه السلام وتنفيذ قرار يزيد، فأشار عليه مروان بأنْ يدعو الحسين عليه السلام وابن عمر وابن الزبير ويأمرهم بالبيعة، فإنْ رفضوا ضَرَبَ أعناقهم قبل أنْ يعلموا بموت معاوية، لأنَّ الرأي العام لو علم بموت معاوية في هذه اللحظة لتوجّهت الأنظار نحو الإمام الحسين عليه السلام كونه صاحب الحقّ الشرعي، إضافةً إلى نصوص المعاهدة التي تقضي بأنْ يكون الحسين هو الخليفة الشرعي بعد موت معاوية، لأنّ الإمام الحسن عليه السلام اسْتُشهِد ومعاوية ما زال حيّاً..

ويستدعي الوليدُ الإمامَ الحسين عليه السلام الذي استشعر من خلال هذا الاستدعاء أنَّ أمراً خطيراً قد حَدَث، فذهب الحسين عليه السلام إليه ومعه مجموعةٌ من إخوته وأهل بيته.. دخل على الوليد طالباً من أهل بيته أنْ يجلسوا بمكان قريب من

(١) تاريخ الأمم والملوك، الطبري ج٤، ص٢٥٠.

مجلس الوليد قائلاً لهم: «**إنْ دعوتكم أو سمعتم صوته (صوت الوليد) قد عَلا فاقتحموا عليَّ بأجمعكم، وإلاَّ فلا ترجعوا حتى أخرج إليكم**»[1].

جلس الإمام الحسين عليه السلام في مجلس الوليد ووجَدَ إلى جواره مروان بن الحكم، وأخبر الوليدُ الحسينَ عليه السلام بموت معاوية، ثمّ «عرض عليه البيعة ليزيد، فقال: **أيُّها الأمير: إنَّ البيعة لا تكون سرّاً، ولكن إذا دعوتَ الناس غداً فادْعُنا معهم**، فقال مروان: لا تقبل أيّها الأمير عُذرَه حتى يُبايع وإلاَّ فاضربْ عنقه، فغضب الحسين عليه السلام ثمّ قال: **ويلٌ لكَ يا ابن الزرقاء، أنتَ تضربُ عنقي كَذِبت ولؤمت**، ثمّ أقبل على الوليد فقال: **أيُّها الأمير إنَّا أهلُ بيت النبوّة، ومعدنُ الرّسالة، ومختلفُ الملائكة وبنا فتَح الله وبنا خَتَم، ويزيدٌ رجلٌ فاسقٌ، شارب الخمر، قاتل النفس المحترمة، معلنٌ بالفسق، ومثلي لا يُبايع مثله، ولكن نصبح وتصبحون، وننظر وتنظرون أيّنا أحقّ بالخلافة والبيعة**. ثمّ خرج عليه السلام، فقال مروان للوليد: عصيتني، فقال: ويحك، إنَّك أشرتَ بذهاب ديني ودنياي، والله ما أُحبُّ أنَّ مُلْكَ الدنيا بأسرها لي وأنّني قتلتُ حسيناً، والله ما أظنُّ أحداً يلقى اللهَ بدم الحسين وهو خفيف الميزان، لا ينظر الله إليه ولا يُزكّيه وله عذابٌ أليم»[2].

خرج الحسين عليه السلام عازماً على المواجهة انطلاقاً من تكليفه الشرعي كونه الإمامَ المعصومَ الأحقَّ بالخلافة بالنص الإلهي، ومن خلال بنود صلح الإمام الحسن عليه السلام، معلناً الجهاد والثورة، وبأنْ تكون مكّة المكرّمة مقرّاً للانطلاق وساحة لحركته المباركة..

(١) الفصول المهمة، ابن الصباغ المالكي، ص١٨٢.

(٢) مقتل الحسين عليه السلام، ابن طاووس ص ١٠ـ١١.

لماذا قام الإمام الحسين عليه السلام بالثورة؟

حدّد كتاب (الإمام الحسين بن علي الشهيد عليه السلام الصادر عن دار التوحيد في الكويت ص ١٠٧ أسباب ثورة الإمام الحسين عليه السلام نعرضها هنا باختصار:

في رسالة وجّهها إلى أخيه محمد بن الحنفيّة يُعلمه فيها عن سبب خروجه لمواجهة الحكم الأموي الفاسد، يقول فيها: «**لم أخرج أشِراً ولا بطراً ولا مُفسِداً ولا ظالِماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله**».

فالإسلام يشترط في القائد الذي يقود الأُمّة أنْ يلتزم بقواعد القسط والعدل، ويحترم قوانين الشريعة وإرادة الأُمّة، ويتجرّد عن حبِّ التسلّط واستغلال المنصب.. ويزيد بناءً على هذه المواصفات ليست له أهليّة القيادة ولا أخلاقية الإمامة، فهو شخصية خليعةٌ ماجنة، جُلَّ اهتمامه اللهو واللعب ومعاقرة الخمور وملاعبة الكلاب والقردة وسباق الخيل وصيد البراري..

وعلى هذا، فكيف يسلّم الحسينُ عليه السلام ابنُ بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وزعيمُ الأُمّة الذي تعقد عليه آمالَها، وترى في شخصيّته القدوة والقيادة لها؟

لذلك رفض الحسين عليه السلام مبايعة يزيد وأعلن الثورة والمواجهة المسلّحة.. فقد جاء في رسالته لأهل الكوفة يعرّفهم بالمواصفات التي يجب أنْ يتّصف بها الإمام لينمّي وعيهم السياسيّ، ويعرّف بشخصيّة القائد الذي تجب له البيعة والطاعة:

«**فلعمري ما الإمام إلاّ الحاكمُ بالكتاب، القائمُ بالقسط، الدائنُ بدين الحقّ، الحابسُ نفسه على ذات الله**»[1].

(١) الإرشاد، الشيخ المفيد ص٢٠٤.

وكتب كتاباً إلى زعماء البصرة وقادة الرأي والمعارضة فيها، جاء فيه: «**وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسُنّة نبيّه ﷺ، فإنَّ السُّنّة قد أُميتَت، والبدعةُ قد أَحييت، فإن تسمعوا قولي أهْدِكُم إلى سبيل الرشاد**»[1].

فالإمام الحسين عليه السلام يرى أنَّ الدولة الإسلامية دولةٌ تقومُ على أساس الإسلام، وتستمدُّ منه قوانينها وتشريعاتها وقيمها الحضاريّة، ويرى أنَّ أجهزة السلطة هي القوّة الحامية للمبادئ والحارسة لأهداف الأُمّة والموكلة بتطبيق العدل وتقديم الخدمات، وهذه الدولة الإسلامية هي المسؤولة عن ذلك أمام الأُمّة وأمام الله سبحانه وتعالى..

وما دفع الإمام الحسين عليه السلام للثورة ضدّ الأمويين جملةٌ من العوامل، أبرزها:

ـ الاستبداد والاستئثار بالسلطة، فقد نشأت طبقةٌ سياسيّة متميّزة وحزبٌ عشائري هو الحزب الأموي، استأثر بالسلطة والمال والإدارة وحرم بقية أبناء الأُمّة، حتى غَدَت الدولة حِكراً على الأمويين ومُلْكاً خاصاً لهم.

ـ القتل والإرهاب.

ـ الانحراف السلوكي ومظاهر الفساد الاجتماعي طبع سلوك الكثيرين من الأفراد والجماعات.

ـ غياب القانون وتحكّم المزاج والمصلحة الشخصية للحاكم والولاة بدل الشريعة والقانون.

ـ عملت السلطة الأمويّة على دعم الذين صاروا يحرّفون سنّة رسول الله ﷺ ويختلقون الأحاديث المكذوبة عن رسول الله ﷺ .

ومن الجدير ذكره أنَّ السلطة الأمويّة لاحقت المعارضين وقتلتهم وزجّت

(١) مقتل الحسين، عبد الرزّاق المقرم، ص ١٤١.

بهم في السجون خصوصاً الناس العاديين من أتباع أهل البيت عليهم السلام وزعماء المعارضة من أنصار أمير المؤمنين عليّ عليه السلام والحسن والحسين عليهما السلام. وقد وصف أحدهم تلك الظروف الإرهابيّة مخاطباً أصحابه ومذكّراً لهم بالمحنة:

«إنّكم كنتم تُقتلُون وتُقطَّعُ أيديكم وتُسْمَلُ أعيُنكم وتُرْفعون على جذوع النخل في حبِّ أهلِ بيت نبيِّكم، وأنتم مقيمون في بيوتكم وطاعة عدوّكم»[1]..

وقد عمد معاوية إلى ممارسة الظلم والتعسّف، فقتل منهم ـ من أتباع أهل البيت عليهم السلام ـ جماعات لم يُحْصِها التاريخ بشكلٍ دقيق وواضح إلاّ أنّنا نذكر بعضاً منهم، أمثال: حجر بن عديّ وهو صحابيّ جليل «وصفه الحاكم في المستدرك أنّه راهبُ أصحاب محمد صلى الله عليه وآله. واستنكر الإمام الحسين عليه السلام قتْلَ هذا الصحابيّ الجليل وقَتْلَ أصحابه، وقد كتب الإمام الحسين عليه السلام إلى معاوية في هذا المجال: «**ألستَ القاتلَ حجراً أخا كندة، والمصلّين العابدين، الذين كانوا يُنكرون الظلم، ويستعظمون البدع ولا يخافون في الله لومة لائم؟ قتلتَهم ظلماً وعدواناً بعدما كنتَ أعطيتهم الأيْمَان المغلّظة والمواثيق المؤكّدة** (يشير إلى البند الذي يمنع معاوية من الانتقام من أتباع أهل البيت من خلال صلح الإمام الحسن عليه السلام) **أنْ لا تأخذهم بِحَدَثٍ كان بينك وبينهم**»[2] وكان معاوية قد قتل مع حجر بن عديّ جماعةً من أصحابه لإعلانهم المعارضة لحكومة معاوية، والولاء للإمام عليّ عليه السلام وبنيه، وهم:

١ ـ شريك بن شدّاد الحضرمي.

٢ ـ صيفي بن فضيل الشيباني.

٣ ـ عبد الرحمان بن حسان العنزي.

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك ج٧، ص١٠٤.

(٢) بحار الأنوار، المجلسي ج١، ص١٤٩.

٤ ـ قبيصة بن ضُبيعة العبسي.

٥ ـ كدام بن حيان العنزي.

٦ ـ محرز بن شهاب التميمي.

وبالإضافة إلى هذه الطليعة، فقد قتل معاوية بن أبي سفيان شخصيات سياسية ورجالاً من المعارضة ممّن يوالون الإمام علياً عليه السلام وأبناءه وهم:

١ ـ عمرو بن الحُمق الخزاعي: وهو صحابيٌّ ومهاجر جليل القدر والمكانة عند رسول الله صلى الله عليه وآله قُتِل في الموصل وقُطع رأسه وحُمِل إلى دمشق.

٢ ـ عبد الله بن يحيى الحضرمي وأصحابه.

٣ ـ رشيد الهَجَري وقد قُطعت يداه ورجلاه وهو حيّ.

٤ ـ جويرية بن مسهر العبدي.

٥ ـ أوفى بن حُصن.

ونقل إلينا المؤرّخ ابن الأثير، صاحب كتاب (الكامل في التاريخ) صوراً دامية عن أحداث ووقائع في البصرة لم يُرَاعِ فيها معاوية بنود الصلح بينه وبين الإمام الحسن عليه السلام، فيقول:

«فلّما استخلف زيادُ (بن أبيه) سمرةَ على البصرة، أكثر القتلَ فيها، فقال ابن سيرين: قتل سمرةُ هذا في غيبة زياد هذا ثمانية آلاف، فقال له زياد: أتخاف أنْ تكون قتلت بريئاً؟ فقال: لو قتلت معهم مثلهم ما خشيتُ»[1].

إضافة إلى القتل والإرهاب شنَّ الأمويّون حرباً دعائيّة مضادّة للمعارضة التي كان يقودها الحسن والحسين عليهما السلام، وقد عمل الأمويّون على تشويه صورة الإمام عليّ عليه السلام وشنّوا حملةً تضليليّة ضدّه، وأعلنوا سبّه والنيل منه على منابر الجمعة والجماعة.

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير ج٢، ص٤٦٢.

وقد نقل المسعودي حادثة جرت بين معاوية وسعد بن أبي وقّاص تصوّر مدى حقد معاوية على عليٍّ عليه السلام.. يقول المؤرّخ المسعودي:

«وحدّث أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، عن محمد بن حميد الرّازي، عن أبي مجاهد، عن محمد بن إسحاق، عن ابن أبي نجيح، قال: لما حجَّ معاوية طاف بالبيت ومعه سعد (بن أبي وقّاص) فلما فرغ انصرف معاوية إلى دار الندوة، فأجلسه معه على سريره، ووقع معاوية في عليٍّ عليه السلام وشرع في سبّه، فزحف سعد، قال: أجلستني معك على سريرك ثمّ شرعت في سبِّ عليٍّ عليه السلام، والله لأنْ يكون فيّ خصلة واحدة من خصالٍ كانت لعليّ أحبَّ إليّ من أنْ يكون لي ما طلعت عليه الشمس، والله لأنْ أكون صهراً لرسول الله صلى الله عليه وآله وأنَّ لي من الولد ما لعليٍّ أحبّ إليَّ مِن أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس، والله لأنْ يكون رسول الله صلى الله عليه وآله قال له، ما قاله يوم خيبر: (**لأعطيَنّ الراية غداً رجلاً يحبُّه الله ورسوله، ويحبُّ اللهَ ورسولَه ليس بفرّار، يفتح الله على يديه**) أحبّ إليَّ من أنْ يكون لي ما طلعت عليه الشمس، والله لأنْ يكون رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي ما قال له في غزوة تبوك: (**ألَا ترضى أنْ تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي**) أحبَّ إليَّ مِنْ أن يكون لي ما طلعت عليه الشمس، وأيمُ اللهِ لا دخلتُ لك داراً ما بقيتُ، ثمّ نهض»[1].

ونقل ابن الأثير:

«وكان بُسْر بن أرطأة عند معاوية، فنال من عليّ عليه السلام، وزيدُ بن عمر بن الخطّاب حاضرٌ، وأمُّه أمُّ كلثوم بنت عليّ، فعلاه بالعصا وشجّه»[2].

وذكر أيضاً:

---

(١) مروج الذهب، المسعودي ج٣، ص١٤.

(٢) الكامل في التاريخ، ابن الأثير ج٤، ص١٢.

«ولما وُلِيَ المغيرةُ الكوفةَ استعمل كثيرَ بن شهاب على الرّي، وكان يُكْثِرُ سبَّ عليٍّ على منبر الرّي»[1].

«وكان زياد بن أبيه قد جمع الناس بالكوفة بباب قصره يحرّضهم على لعن عليّ عليه السلام، فمن أبَى ذلك عرضَه على السيف».

وبقيت هذه الحملة ضدَّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام حتى جاء عمر بن عبد العزيز فأمر بتركها وقام بتطهير الجهاز الحكومي القائم قبله.. ومن الأسباب التي دفعت الإمام الحسين عليه السلام للثورة الأوضاعُ الاجتماعيةُ والاقتصاديةُ التي كانت قائمة، وقد شعرت الطبقات الضعيفة بضياع حقوقها وانتشار الفقر بين صفوفها في حين تتكدَّس الثروة بيد فئة وطبقة معيّنة.

وقد نقل لنا التاريخ أرقام الثروات التي كانت بيد الأمويين وأتباعهم، فقد ذكر المؤرّخون مثلاً: «أنّ عمرو بن العاص، والي مصر في عهد معاوية بلغت ثروته من العين ثلاثمائة ألف دينار وخمسة وعشرين ألف دينار، ومن الورق ألف درهم وغلّة مائتي ألف دينار بمصر».

«وأنَّ عبد الرحمن بن عوف قُسِّم ميراثُه على ستة عشر سهماً تبلغ نصيب كلّ امرأة له ثمانين ألف درهم».

وحصل مروان بن الحكم على خمسمائة ألف دينار من موارد إفريقيّة»[2].

وذكر سعيد بن المسيّب أنَّ زيد بن ثابت حين مات خلّف من الذهب والفضّة ما كان يُكْسر بالفؤوس غير ما خلّف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار»[3].

هذه الأوضاع الاقتصادية ما بين الغنى الفاحش والفقر المدقع هي أحد

(١) المصدر السابق ص٤١٣.
(٢) المعارف، ابن قتيبة الدينوري ص٨٤.
(٣) الكامل في التاريخ، إبن الأثير ج٢، ص٣٣٣.

الأسباب التي أجّجت نار الثورة وجعلت الطبقات المحرومة ومن ينادون بالمساواة يتّجهون إلى الحسين عليه السلام باعتباره القائد الذي يستطيع أنْ يطبّق أحكام الإسلام وقوانينه كما أَلِفوها أيام رسول الله صلى الله عليه وآله.

وكيف لا يثور الحسين عليه السلام وهو يرى الخلافة الإسلامية أصبحت بيد شارب للخمر، قاتل النفس المحترمة، ولم يعش الروح الإسلامية في الورع والتقوى ولم يَنَل أيَّ نصيب من التربية الإسلامية، فقد نشأ في بيت لم تُشرق شمس الهداية الإسلامية في آفاقه قطّ، ومن هنا، فليس من الغرابة بمكان أنْ تؤكّد النصوص التاريخية تعاطي يزيد الخمر والقمار وسائر أنواع السلوك المغاير للسلوك الإسلامي[1].

إنَّ رفض الإمام الحسين عليه السلام لهذا الواقع الفاسد وإعلان رأيه بالمواجهة والثورة، لم يلقَ صدىً واسعاً لدى جمهور المسلمين، بل على العكس، فإنَّ الكثيرين من رجالات المسلمين صاروا ينصحون الإمام الحسين عليه السلام بعدم إعلان الثورة ضدّ الحكم الأموي خوفاً منهم عليه من الاستشهاد مع إدراكهم الحقيقي لانحراف وفساد الحكم الأمويّ ومع إيمانهم المطلق بحقّ الإمام الحسين عليه السلام بالخلافة. وقد فاتحه بذلك عمر الأطرف وعبد الله بن عمر بن الخطّاب وعبد الله بن الزبير إضافة إلى مجموعة من بني هاشم ومن أهل بيته.

وإنَّ غياب روح الرفض والظلم عند القيادات، انعكس ذلك على الجماهير، فأهل الكوفة مثلاً ورغم الكتب والرسائل والمواثيق التي أرسلوها للإمام الحسين عليه السلام طالبين منه أنْ يأتي إلى الكوفة في العراق ليستلم الحكم الإسلامي، فإنَّهم أمام عوامل الإرهاب الأموي والخوف النفسي وعدم الثبات العقائدي، كلّ ذلك جعلهم يتراجعون عمّا أعطوه من مواثيق وعهود للإمام الحسين عليه السلام..

ولعلّ ما عبّر عنه الفرزدق للحسين عليه السلام حين سأله عن أوضاع الناس في

(١) الإمام الحسين، عبد الله العلايلي ص٣٤٢.

العراق ومدى إخلاصهم لمنهج أهل البيت عليهم السلام ورفضهم للتعسّف والظلم الأموي، قال الفرزدق: «قلوبهم معك، وسيوفهم مع بني أُميّة»، وهذا يُظهر غياب الروح الرساليّة والمسؤولية الشرعية أمام الله سبحانه وتعالى..

وهذا الواقع المزري لجموع المسلمين، كانت سبباً أساسياً في إعلان الإمام الحسين عليه السلام للثورة لكي يُوقظ الضمائر النائمة، ويحرّك العقول المخدّرة لتصحوَ على واقعها المزري..

ولو راجعنا التاريخ لوجدنا كيف أنَّ الحسين عليه السلام وفي حواره مع عبد الله بن عمر بن الخطّاب كان يحرّك في القيادات شعور المواجهة ضدّ الظلم والظالمين.. فهذا ابن عمر يقول للحسين عليه السلام: «يا أبا عبد الله مهلاً عمّا عزمتَ عليه وارجع من هنا إلى المدينة (وهذا الحوار جرى عندما ترك الحسين عليه السلام المدينة وذهب إلى مكّة) وادخلْ في صلح القوم، ولا تغب عن وطنك وحَرَمِ جدِّك رسول الله صلى الله عليه وآله ولا تجعلِ لهؤلاء الذين لا خلاق لهم على نفسك حجّةً وسبيلاً، وإنْ أحببت أنْ لا تبايع فأنتَ متروكٌ حتى ترى برأيك، فإنَّ يزيد بن معاوية عسى الله أن لا يعيش إلاّ قليلاً، فيكفيك الله أمره.. فقال الحسين عليه السلام: **أُفٍّ لهذا الكلام أبداً ما دامت السماواتُ والأرض أسألك بالله يا عبد الله أنا عندك على خطأ من أمري هذا؟ فإنْ كنتُ عندك على خطأ فَرُدّني فإنّي أخضعُ وأسمعُ وأَطيعُ**.. فقال ابن عمر: اللّهم لا، ولم يكن الله تعالى يجعلِ ابنَ بنت رسول الله على خطأ، وليس مثلك من طهارته وصفوته من الرسول صلى الله عليه وآله على مثلِ يزيد بن معاوية باسم الخلافة، ولكن أخشى أن يُضرَب وجهك هذا الحسن الجميلِ بالسيوف، وترى من هذه الأمّة ما لا تحبّ، فارجع معنا إلى المدينة، وإنْ لم تحبّ أنْ تبايع فلا تبايع، وأقعد في منزل.. فقال الحسين عليه السلام: **هيهات يا بن عمر! إنّ القوم لا يتركوني وإنْ أصابوني، وإنْ لم يصيبوني فلا يزالون حتى أُبايع وأنا كارهٌ أو يقتلوني، أمَا تعلم يا عبد الله! أنَّ مِنْ هوان هذه الدنيا على الله تعالى**

أنّه أُتِيَ برأس يحيى بن زكريا عليه السلام إلى بغيّةٍ من بغايا بني إسرائيل والرأسُ ينطق بالحجّة عليهم.. اتّقِ الله أبا عبد الرحمن ولا تَدَعنَّ نُصرتي واذكُرْني في صلاتك، فوالذي بعث جدّي محمداً صلى الله عليه وآله لو أنَّ أباك عمر بنَ الخطّاب أدرك زماني لنصرني كنُصرته جدِّي، وأقام دوني قيامه بين يَدَي، يا ابن عمر، فإنْ كان الخروج معي ممّا يَصْعُب عليك ويثقُلُ فأنتَ في أوسع العذر، ولكن لا تترُكنَّ لي الدعاء في دُبر كلِّ صلاة واجلس عن القوم ولا تعجل بالبيعة لهم حتّى تعلم إلى ما تؤولُ الأمور»[1].

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام، معهد تحقيقات باقر العلوم، منظمة الإعلام الإسلامي ص ٣٠٨.

خروج الحسين من المدينة إلى مكّة

وتهيّأ الإمام الحسين عليه السلام للخروج من المدينة إلى مكّة، ولأنّه الحاكم الشرعي فإنَّ الأُمّة الرافضة لحكم بني أُميّة تجد فيه الرمز الإسلامي الكبير الذي يجسّد بحقّ كلمة الله في الأرض، وقبل خروجه حاول الوليد ومروان أنْ يأخذا منه البيعة ليزيد فأرسلا إليه مرّةً ثانية وفداً يدعوه للحضور، فقال للوفد: «**نصبح، ثمّ ترون ونرى**»[1].

وبدأ الإمام الحسين عليه السلام يحضّر نفسه وعياله وإخوته للتوجّه إلى مكّة وقبل المسير يتوجّه لوداع قبر جدّه، ووقف أمام القبر الشريف ـ بعد أن صلّى ركعتين ـ وقد ثارت مشاعره وعواطفه، فاندفع يشكو إلى الله ما ألمَّ به من المحن والخطوب قائلاً: «**اللّهم إنَّ هذا قبر نبيّك محمد، وأنا ابنُ بنت محمد، وقد حضرني من الأمر ما قد علمت، اللّهم إنّي أُحبُّ المعروف وأُنكر المنكر، وأنا أسألك يا ذا الجلال والإكرام بحقّ هذا القبر ومَنْ فيه إلاّ ما اخترت لي ما هو لكَ رضىً ولرسولك رضىً..**».

وتوجّه الحسين عليه السلام في غلس الليل البهيم إلى قبر أُمّه عليها، وديعة النبيّ صلى الله عليه وآله وبضعته، ووقف أمام قبرها الشريف مليّاً: وهو يُلقي عليه نظرات الوداع الأخير، ثمّ انصرف إلى قبر أخيه الزكيّ أبي محمد الإمام الحسن عليه السلام، فأخذ يروِّي ثرى القبر من دموع عينيه[2].

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير ج٤، ص١٦.

(٢) الفتوح ٥/ ٢٩، حياة الإمام الحسين عليه السلام الشيخ باقر شريف القرشي ص٢٦٠ ـ ٢٦١.

وصيّته إلى أخيه محمد بن الحنفية

وتقول الروايات بأنّ الإمام الحسين عليه السلام رجع إلى منزله وقت الصبح، فأقبل إليه أخوه محمّد بن الحنفيّة ينصحه بالتوجّه إلى اليمن لأنَّ هناك أنصاراً للنبيّ صلى الله عليه وآله ولأبيه عليّ عليه السلام. فقال الحسين عليه السلام: «**يا أخي جزاك الله خيراً، لقد نصحتَ وأشرتَ بالصواب وأنا عازمٌ على الخروج إلى مكّة، وقد تهيّأتُ لذلك أنا وإخوتي وبنو أخي وشيعتي، وأمرُهم أمري، ورأيهم رأيي، وأمّا أنتَ يا أخي فلا عليك أنْ تقيم بالمدينة، فتكون لي عيناً عليهم ولا تُخفِ عني شيئاً من أمورهم**»[1].

ثمّ دعا الحسين عليه السلام بدواة وقرطاس، وكتب هذه الوصيّة لأخيه محمد يُوضح فيها سبب خروجه لمواجهة بني أُميّة: «**بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أوصى به الحسين بن عليّ بن أبي طالب إلى أخيه محمد المعروف بابن الحنفية، أنَّ الحسين يشهد أنْ لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسولُه جاء بالحقّ من الحق، وأنّ الجنّة والنار حقٌّ وأنَّ الساعة آتيةٌ لا ريبَ فيها، وأنّ الله يبعث مَنْ في القبور، وأنّي لم أخرج أشِراً ولا بَطِراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنّما خرجتُ لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي، أريدُ أنْ آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدّي وأبي عليّ بن أبي طالب عليه السلام فمن قَبِلَني بقَبول الحقّ فاللهُ أولى بالحقّ، ومَنْ ردَّ عليَّ هذا أصبر حتى يقضي اللهُ بيني وبين القوم بالحقّ وهو خيرُ الحاكمين، وهذه وصيّتي يا أخي إليك وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكّلتُ وإليه أُنيب**»[2].

---

(١) الفتوح ٥/ ٢٣، مقتل الحسين عليه السلام للخوارزمي ١/ ١٨٨.

(٢) المناقب لابن شهر آشوب ٤/ ٩٨.

كتابه إلى بني هاشم

وجاء في التواريخ أيضاً أنّه عندما عزم على الخروج من المدينة كتب إلى أقربائه من بني هاشم كتاباً يضعهم فيه أمام مسؤولياتهم الشرعية في نصرة الله ونصرة وليّ الله، جاء فيه: «**بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن عليّ بن أبي طالب إلى بني هاشم، أمّا بعد، فإنَّ مَنْ لَحِقَ بي منكم اسْتُشْهِد، ومَنْ تخلَّف لم يبلغ الفتحَ والسلام**»[1].

إنَّ كلَّ المحاولات بثني الحسين عليه السلام عن إعلان الثورة والنُصْح له بمبايعة يزيد قد باءت بالفشل، لأنّه كان يدرك أنّ إسقاط الحكم الأموي يحتاج إلى رجل مثله عليه السلام وإلى شخصيات تعيش في وجدان الأُمّة وتتفاعل مع ضميرها وتؤثّر في حسّها ووعيها، ولم يكن في تلك المرحلة من شخصية تملك هذه المؤهّلات إلاّ الحسين عليه السلام فهو يعلم أنّه القادر على هزّ الحكم الأموي وتفجير البركان تحت عرش يزيد وأنّه القادر على كلتا الحُسنيين، النصر أو الشهادة.. فإن انتصر سيقيم عدل الإسلام، ويطبّق أحكام الشرعية وقِيَم الحقّ التي نادت بها، وإنْ اسْتُشْهِد سيبقى شلّال الدم المقدّس يجري عَبْرَ وديان الحياة..

كان الموكب الحسيني المؤلّف من الحسين وأهل بيته وأولاده وأقربائه القليل العَدَد، العظيم الإرادة الذي زحف به الحسين عليه السلام من مدينة جدّه صلى الله عليه وآله إلى مكّة ليقرّر هناك مستقبل المسيرة، كان هذا الموكب، وثيقة خالدةً من وثائق الرسالة الإسلامية المقدّسة..

(١) بصائر الدرجات ٤٨١، حديث ٥.

لقد ثبّت الحسين عليه السلام مبدأ الانتفاضة والثورة، وأسبغ صفة الشرعية الكاملة لأول مرّة في تاريخ الإسلام على مثل هذا الموقف وتلك المواجهة للسلطة الجائرة. لقد اجتمعت الكوكبة من آل البيت النبويّ حول الحسين عليه السلام، وشدّت الرحال وسلكت[1] درب الكفاح الطويل، حيث اصطحب الحسين عليه السلام معه إخوته وأبناءه وأصحابه»[2].

(١) انطلق الحسين عليه السلام إلى مكّة في الثالث من شعبان سنة ٦٠ هجرية.

(٢) الإمام الحسين بن علي الشهيد عليه السلام دار التوحيد، ص ١٣٠.

الحسين عليه السلام في الطريق إلى مكّة

وغادر الإمام الحسين عليه السلام مدينة جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله المدينة التي تربّى فيها على يد رسول الله صلى الله عليه وآله وأُمّه فاطمة الزهراء وأبيه عليّ عليه السلام المدينة التي شهد فيها ما جرى على أخيه الحسن عليه السلام وما جرى لأبيه وأُمّه من اغتصاب حقّهما وظلمهما والتعدّي عليهما، المدينة التي ترك فيها ذكريات وآلاماً رساليّة، رافضاً أنْ يرضخ لقوى البغي والظلم، لِلْقوى التي تنكّرت لحقّه في الخلافة وللإسلام في دوره الحضاري العظيم.

إذاً نحو مكّة، اتّجه رَكْبُ الحسين عليه السلام وسارت المجموعة التي نهلت من معين الإسلام العلمَ والجهادَ والشهادةَ.. سار الحسين عليه السلام ومعه هؤلاء النفر من أهل بيته وأصحابه، وبرفقته نساؤه وأبناؤه وأولاد إخوته وأخته زينب الكبرى عليها السلام..

وفي الطريق وقبل وصوله إلى مكّة المكرّمة، لقيه عبد الله بن مطيع الذي هاله خروج الحسين عليه السلام من المدينة المنوّرة، وقد أبدى للحسين عليه السلام خوفه من أنْ يُقتَل، لأنّه عليه السلام هو أملُ الأُمّة، وإنَّ قتله يُفقد الأمل عند الأُمّة بقائد عُلِّقت عليه الآمال بأنْ يعيد للإسلام دوره القيادي ويعيد للقيادة الشرعية المتمثّلة في الحسين عليه السلام دورها في قيادة الأُمّة بدل يزيد وكلّ العائلة الأمويّة التي أساءت للإسلام وللمسلمين ومارست أبشع أنواع الظلم والإرهاب ضدّ الرساليّين الذين رفضوا منهج البُعد عن الإسلام..

ويسأله عبد الله بن مطيع:

ـ جعلتُ فداك أين تريد أبا عبد الله؟

ـ أمّا الآن فمكّة، فإذا صرتُ إليها استخرتُ اللهَ في أمري بعد ذلك.

ـ خار اللهُ لك يا ابن بنت رسول الله فيما قد عزمت عليه وجعلنا فداك، فإذا أتيت مكّة فإيّاك أنْ تقرب الكوفة، فإنَّها بلدة مشؤومة، بها قُتِل أبوك وخُذِلَ أخوك واغتيل بطعنةٍ، كادت تأتي على نفسه، إلزم الحَرَم (مكّة) فإنّك سيِّد العرب، لا يَعْدِلُ بك أهلُ الحجاز أحداً، ويتداعَى إليك الناس من كلِّ جانب، لا تُفارِقِ الحَرَم، فداك عمّي وخالي، فوالله لئن هَلَكْتَ لَنُسْتَرَقَنَّ (نصبح عبيداً) بعدك»[1].

وشكره الإمام وودّعه ودعا له بخير، وسار موكب الإمام يجدُّ السير لا يلوي على شيءٍ حتى انتهى إلى مكّة، فلما نظر الحسين عليه السلام إلى جبالها تلا قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص: ٢٢].

توافد الناس والحجيج على الحسين عليه السلام وقد حطَّ رحاله في دار العبّاس بن عبد المطّلب[2]، وقد استُقبِل استقبالاً حافلاً من المكيين، وجعلوا يتوافدون عليه بكرةً وعشيّاً، وهم يسألونه عن أحكام دينهم، وأحاديث نبيّهم، يقول ابن كثير: «وعكَفَ الناس بمكّة يفدون إليه ويجلسون حواليه، ويستمعون كلامه، وينتفعون بما يسمعون منه، ويضبطون ما يروون عنه» وقد حامَتْ حوله النفوس تروي غليلها من نمير علومه التي هي امتدادٌ من علوم جدِّه مفجِّر العِلم والنور في الأرض.

وأخذ القادمون إلى بيت الله الحرام من الحجّاج والمعتمرين من سائر الآفاق يختلفون إليه ويهتفون بالدعوة له، هذا يلتمس منه العِلم والحديث، وذاك يقتبس منه الحِكَم النافعة والكَلِم الجامع ليهتدي بأنوارهما في ظلمات الحياة، ولم يترك الإمام ثانيةً من وقته تمرُّ دون أنْ يبثَّ الوعي الاجتماعي، ويدعو إلى اليقظة والحذر من السياسة الأموية الهادفة إلى استبعاد المسلمين وإذلالهم[3]

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير ج٤، ص١٩.
(٢) تاريخ ابن عساكر ١٣/ ٦٨.
(٣) حياة الإمام الحسين ـ دراسة وتحليل ـ الشيخ باقر شريف القرشي ص٣٠٨.

هدف الإمام الحسين عليه السلام من القدوم إلى مكّة

يلخّص هذا العنوان كتاب (الإمام الحسين بن عليّ الشهيد) الصادر عن دار التوحيد ص ١٣٩، على الشكل التالي:

كان اختيار الحسين عليه السلام لمكّة المكرّمة وانتقاله من المدينة المنوّرة يستهدف:

ـ إلفات نظر الرأي العام وإيقاظه وتحريكه ومراقبته واختباره ورصده عن كثب.

ـ البدء في التعبئة والإعداد وشرح أبعاد القضية السياسيّة على ضوء مبادئ الحكم والسياسة والإدارة في الإسلام.

ـ التخطيط لقيادة الجماهير.

ـ البدء بالمواجهة وإعلان إسقاط حكومة يزيد وإقامة الدولة الراشدة تحت قيادة الحسين عليه السلام التي تقوم على أساس مبادئ القرآن والسُّنّة النبويّة الشريفة.

ومن الجدير ذكرُه أنّه عندما أتى الحسين عليه السلام مكّة، اشتدَّ ذلك على عبد الله بن الزبير، لأنّه كان قد طمع أنْ يبايعه أهل مكّة (طبعاً هو لم يبايع يزيد عندما كان في المدينة لأنّه كان طامعاً بأخذ الخلافة)، فلما قَدِم الحسين عليه السلام شقَّ ذلك عليه، غير أنّه كان لا يُبدي ما في قلبه إلى الإمام الحسين عليه السلام وهو مع ذلك يعلم أنّه لا يبايعه أحدٌ من أهل مكّة، لأنَّ الحسين عليه السلام عندهم أعظم في أنفسهم من ابن الزبير[1].

(١) موسوعة كلمات الإمام الحسين، معهد تحقيقات باقر العلوم، منظمة الإعلام الإسلامي ص ٣٠٥.

مراسلات أهل الكوفة للحسين عليه السلام

كان من آثار تحرّك الإمام الحسين عليه السلام في مكّة المكرّمة أنْ دبّت روح الثورة في العراق، مركز الحركة السياسية الموالية لأهل البيت عليهم السلام آنذاك، ودعوة الحسين لقيادته. فقد اجتمع زعماء المعارضة من أنصار الإمام الحسين عليه السلام في الكوفة في بيت سليمان بن صُرَد الخزاعي، واستعرضوا الأوضاع السياسية والاجتماعية وموت معاوية وانتقال السلطة إلى يزيد، وتباحثوا في مشروع الحسين وتحرّكه وانتقاله إلى مكّة ورفضه لخلافة يزيد، وقرّروا نصرة الحسين عليه السلام والانضواء تحت قيادته وإمامته، وإعلان الولاء له ومكاتبته بذلك، فقام سليمان بن صُرَد الخزاعي، فألقى خطاباً في الحاضرين، قال فيه:

«إنَّ معاوية قد هلك، وإنَّ حسيناً قد تقبّض على القوم ببيعته، وقد خرج إلى مكّة، وأنتم شيعتُهُ، وشيعةُ أبيه، فإنْ كنتم تعلمون أنّكم ناصروه ومجاهدو عدوّه، ونقتل أنفسنا دونه، فاكتبوا إليه وأعلموه، وإنْ خفتم الفشلَ والوَهن فلا تغرّوا الرجلَ في نفسه، قالوا: لا، بل نقاتل عدوّه، ونقتل أنفسنا دونه، قال: فاكتبوا إليه»، فكتبوا إليه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. سلام عليك. فإنّا نحمد إليكَ الله الذي لا إله إلاّ هو. أمّا بعد، فالحمد لله الذي قصم عدوّك الجبّار العنيد الذي انتزى على هذه الأُمّة فابتزّها أمرَها، وغَصبَها فَيْئَها، وتأمّرَ عليها بغير رِضىً منها، ثم قتلَ خيارَها، واستبقى شرارَها، وأنّه ليس علينا إمام، فأقبل لعلّ الله أنْ يجمعنا بكَ على الحقّ، والنعمانُ بن بشير في قصرِ الإمارةِ لَسنا نجتمعُ معه في جمعة ولا عيد، ولو بَلَغَنا إقبالُكَ إلينا أخرجناهُ حتّى نُلْحِقَهُ بالشّامِ إنْ شاء الله تعالى، والسلام عليكَ ورحمة الله وبركاته».

وسيّروا الكتابَ مع عبد الله بن سبع الهمداني وعبد الله بن والٍ، ثمّ كتبوا إليه كتاباً آخر وسيّروه بعد ليلتين، فكتب الناس معه نحواً من مائة وخمسين صحيفة، ثمّ أرسلوا إليه رسولاً ثالثاً يحثّونه على المسير إليهم، ثمّ كتب إليهِ شِبثُ بن ربعي وحَجّارُ بن أبْجُر ويزيدُ بن الحارث ويزيدُ بن رويم وعروةُ بن قيس وعمرو بن الحجّاج الزبيدي ومحمّد بن عمير التميمي بذلك»[1].

واستمرّت الكتب والرّسائل تتوارد على الحسين عليه السلام وصيحات الاستغاثة تنطلق: «ليس علينا إمام، فأقْبِل لعلّ الله يجمعنا بك على الحقّ والهُدى». وفي رسائل أخرى: «إنّ الناس ينتظرونك، لا رأي لهم غيرك، فالعَجَلَ العجلَ، ثمّ العَجَلَ العَجَلَ».

فكتب الإمام الحسين عليه السلام إلى أهل الكوفة كتاباً، يطالبهم فيه باجتماع الكلمة ووحدة الصفّ والوفاء بالعهد، فلأهل البيت النبويّ تجربة مرّة قاسية عاشوها أيّام الإمام عليّ عليه السلام وولده الحسن عليه السلام في قيادتهم لجماهير العراق، لذلك كتب إليهم كتاباً ضمّنه جواب رسائلهم، واعتماد ممثّل عنه، وهو ابن عمّه مسلم بن عقيل ليقيِّم الموقف ويستجلي الحقيقة، ويمهِّد للبيعة والقيادة. وجاء في الكتاب:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من الحسين بن عليّ عليه السلام، إلى الملأ من المؤمنين والمسلمين. أمّا بعد، فإنّ هانياً[2] وسعيداً[3] قدِما عليَّ بكتبكم، وكانا آخر مَن قدم عليَّ مِن رسلكم، وقد فَهِمتُ كلّ الذي اقْتَصَصْتُم وذكرتم ومقالة جُلّكُم أنّه ليس علينا إمام، فأقبِل لعلّ الله أن يجمعنا بكَ على الحقّ والهُدى. وإنّي باعِثٌ إليكم أخي وابن عمّي وثقتي من أهل بيتي مسلم بن عقيل، فإن كتب إليَّ أنّه قد اجتمع رأي مَلَئِكم، وذوي الحِجى (العقل) والفضل منكم على مثل ما قَدِمَتْ بهِ رُسُلُكم، وقرأتُ في كتبكم، فإنّي أقدِم إليكم وشيكاً إنْ شاء الله، فلعمري ما الإمام إلاّ

(١) الشيخ المفيد، الإرشاد ص٢٠٣، وفي الطبري، تاريخ الأمم والملوك ج٤، ص٢٦١، وابن الأثير، الكامل في التاريخ ج٤، ص٢٠.

(٢) هانيء بن هاني السبعي.

(٣) سعيد بن عبد الله الحنفي.

الحاكمُ بالكتاب، القائمُ بالقسط، الدائنُ بدينِ الحقّ، الحابسُ نفسَهُ على ذات الله، والسّلام»[1].

ووجّه الحسين عليه السلام عنايته إلى البصرة، واهتمامه بتعبئة جماهيرها ومخاطبة زعمائها وقادة الرأي والمعارضة فيها، فكتب إليهم كتاباً جاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. أمّا بعد، فإنّ الله اصطفى محمّداً صلى الله عليه وآله على خلقه، وأكرمه بنبوّته، واختاره لرسالته، ثمّ قبضه الله إليه، وقد نصحَ لعباده، وبلّغَ ما أُرسِلَ بهِ صلى الله عليه وآله، وكنّا أهلَهُ، وأولياءَهُ، وأوصياءَهُ، وورثتَهُ، وأحقَّ الناس بمقامِهِ في الناس، فاستأثرَ علينا قومُنا بذلك، فرضينا، وكرهنا الفُرقة، وأحببنا العافية، ونحنُ نعلمُ أنّا أحقّ بذلك الحقّ المستحقّ علينا ممّن تولّاه وقد بعثتُ رسولي إليكم بهذا الكتاب، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنّةِ نبيّه صلى الله عليه وآله، فإنّ السنّة قد أُميتَتْ، والبِدْعَةَ قد أُحْيِيَتْ، فإنْ تسمعوا قولي أَهدِكُم إلى سبيلِ الرّشاد»[2].

وهكذا بلغت أخبار الحركة الحسينية البصرة، وهي معقل من معاقل العمل والتحرّك السياسي، والحاضرة الإسلامية الكبرى بعد الكوفة آنذاك، وفيها زعماء للمعارضة، ورأي عام مواجه للحكم الأموي، وقد عانَت من الولاة أيّام معاوية معاناة شديدة قاسية، فعُقِدَ اجتماعٌ في بيتِ إحدى النّساء العاملات في حقل السياسة، وهي (مارية) والتي كانت تُوالي أهلَ البيت، وقرّروا نصرةَ الحسين عليه السلام والبيعةَ له، ومكاتبته بذلك، فقد ذكر ابن الأثير هذا الاجتماع وسجّله في كتابه الكامل في التاريخ:

«واجتمع ناس من الشيعة بالبصرة في منزلِ امرأة مِن عبد القيس يُقال لها مارية بنت سعدة وكانت تتشيّع، وكان منزلها لهم مألفاً يتحدّثون فيه، فعزم يزيد بن بنيط

(١) الشيخ المفيد، الإرشاد ص٢٠٤، ومثله في الطبري، تاريخ الأمم والملوك ج٤، ص٢٦٢، وابن الأثير، الكامل في التاريخ ج٤، ص٢١.

(٢) عبد الرزّاق المقرّم، مقتل الحسين عليه السلام ص١٤١و١٤٢.

على الخروج إلى الحسين عليه السلام، وهو من عبد القيس، وكان له بنون عشرة، فقال لهم: أيّكم يخرج معي؟ فخرج معه ابنان له: عبد الله وعبيد الله، فساروا فَقَدِموا عليه بمكّة ثمّ ساروا معه فقُتِلوا معه»[1].

وحينَ قَدِمَ كتابُ الإمام الحسين عليه السلام إلى أهل البصرة، أجاب فريق منهم أمثال يزيد بن مسعود، الذي جمع بني حنظلة وبني سعد وبني تميم، وخطبهم وحثّهم على نصرة الحسين عليه السلام وحذّرهم من الخذلان، ومن جملة ما ورد في خطابه:

«وقد قام يزيدُ شاربُ الخمور ورأسُ الفجور يدّعي الخلافةَ على المسلمين ويتأمّرُ عليهم بغير رضىً منهم، مع قصر حلم وقلّة علم، لا يَعرِفُ مِنَ الحقّ موطِئَ قدميه، فَأُقسِمُ باللهِ قَسَماً مَبروراً لَجِهادُهُ على الدِّين أفضلُ مِن جهاد المشركين، وهذا الحسين بن عليّ وابن رسول الله صلى الله عليه وآله ذو الشرف الأصيل والرّأي الأثيل، له فضل لا يوصف وعلم لا ينزف، وهو أولى بهذا الأمر لسابقته وسِنِّه وقِدَمِه وقرابته، يعطفُ على الصّغير ويُحسِنُ إلى الكبير، فَأَكْرِمْ به راعيَ رعيّةٍ، وإمامَ قوم وجبتْ لله به الحجّةُ، وبلغتْ به الموعظة، فلا تعشوا عن نور الحقّ، ولا تسكعوا في وَهدِ الباطل، فقد كان صَخرُ بن قيس انخذلَ بكم يومَ الجمل، فاغسلوها بخروجكم إلى ابن رسول الله صلى الله عليه وآله ونصرته، والله لا يقصّرُ أحدُكُمْ عن نُصرتِهِ إلاّ أورثه الله الذلّ في وُلده والقلّة في عشيرته، وها أنا ذا قد لبست للحرب لامتها وادّرعتُ لها بِدرْعها، مَنْ لَمْ يُقتَل يَمُت، ومَنْ يهربْ لم يَفتْ، فَأحسِنوا رحمكم الله ردّ الجواب.

فتكلّمت بنو حنظلة، فقالوا: يا أبا خالد! نحن نَبْلُ كنانَتِك وفُرسانُ عشيرتِكَ، إنْ رميتَ بنا أصبْتَ، وإنْ غزوتَ بنا فَتحتَ، لا تخوض والله غمرةً إلاّ خُضناها، ولا تَلقى والله شدّةً إلاّ لقيناها، ننصرُكَ واللهِ بأسيافِنا، ونَقيكَ بأبداننا، إذا شئتَ فافعل.

(١) وابن الأثير، الكامل في التاريخ ج٤، ص٢١. مألفاً: مقرّاً للاجتماع.

وتكلّمت بنو سعد بن يزيد فقالوا: يا أبا خالد! إنّ أبغض الأشياء إلينا خِلافُكَ والخروجُ مِنْ رأيك، وقد كان صخرُ بنُ قيس أمرنا بترك القتال فحمدنا أمرنا، وبقي عزّنا، فأمْهِلْنَا نراجع المشورة، ونأتيك برأينا.

وتكلّمت بنو عامر بن تميم فقالوا: يا أبا خالد! نحن بنو عامر بنو أبيك. وحلفاؤك لا نرضى إنْ غَضِبْتَ، ولا نوطن إنْ ظعنتَ، والأمرُ إليك، فادعنا نُجِبكَ، وَأْمُرنا نُطِعْكَ، والأمرُ لكَ إذا شِئتَ. فقال: والله يا بني سعد! لئن فعلتموها لا رفع الله السّيف عنكم أبداً، ولا زال سيفُكُم فيكم، ثمّ كتب إلى الحسين عليه السلام: «بسم الله الرحمن الرحيم. أمّا بعد، فقد وصل كتابك، وفهمتُ ما نَدَبتَني إليه، ودعوتَني له من الأخذ بحظّي من طاعتك والفوز بنصيبي من نصرتك، وإنّ الله لا يُخلي الأرضَ قطُّ مِن عامل عليها بخير أو دليل على سبيل نجاة، وأنتم حجّةُ الله على خلقه، ووديعتُه في أرضه، تفرّعتم من زيتونةٍ أحمديّة، هو أصلُها وأنتم فرعُها، فأقدِمْ سعدتَ بأسعدِ طائر، فقد ذلّلتُ أعناقَ بني تميم، وتركتُهُم أشدَّ تتابعاً في طاعَتِكَ من الإبل الظماء لورود الماء يوم خَمْسها وكظّها، وقد ذلّلتُ لكَ بني سعد، وغسلتُ درنَ صدورها بماءِ سحابةِ مُزْنٍ حينَ استهلَّ بَرقُها فَلَمَع».

فلمّا قرأ الحسين عليه السلام الكتاب قال: **«ما لكَ آمنَكَ الله يومَ الخوف، وأعزّكَ وأرواكَ يومَ العطشِ الأكبر»**.

فلمّا تجهّز المُشار إليه للخروج إلى الحسين عليه السلام بلغه قتلُه قبل أن يسير فخرج من انقطاعه عنه، وأمّا المنذرُ بن الجارود، فإنّه جاء بالكتاب والرسول إلى عبيد الله بن زياد؛ لأنَّ المنذرَ خافَ أنْ يكون الكتابُ دسيساً من عبيد الله ابن زياد وكانت بحرية بنت المنذر زوجة لعبيد الله بن زياد، فأخذ عبيد الله بن زياد الرسول، فصلبه، ثمّ صعد المنبر، فخطب وتوعّد أهلَ البصرة على الخلاف وإثارة الإرجاف، ثمّ بات تلك الليلة، فلمّا أصبح استناب عليهم أخاه عثمان بن

زياد وأسرع هو إلى قصر الكوفة»[1].

وهكذا اتّضح الموقف، وتحدّدت معالِم الحركة الحسينية، وتحرّك الرأي العام، واستقطب الحسين العواطف والمشاعر، وهو يدير الحركة من مكّة المكرّمة خلال شهر شعبان ورمضان وشوّال وذي القعدة وأيّام من ذي الحجّة، حتّى أنّ مسلم بن عقيل رسول الحسين عليه السلام حين قرأ رسالة الحسين عليه السلام على أهل الكوفة، أجهشوا بالبكاء، وتعالَت أصواتهم بالاستغاثة، والاستبشار، لذا تحدّدت وجهة الحسين عليه السلام، وحدّد منطلق الثورة، فاختيار المكان والزّمان والظرف السياسي المناسب، شرط من الشروط الأساسية في نجاح الحركة الثورية.

وبعد كلّ المعلومات التي توفّرت لدى الحسين عليه السلام، أصبح العراق هو البلد المرشّح للانطلاق وإعلان الثورة وقيام دولة الإسلام الراشدة[2].

(١) ابن طاووس، مقتل الحسين ص١٧ وما بعدها. الكظ: الجهد والتعب والإرهاق.

(٢) الإمام الحسين بن علي الشهيد، مرجع سابق ص١٣٣ـ١٤٦.

نصائح أُسديت للحسين عليه السلام في غير موقعها

أقام الحسين عليه السلام بمكّة خلال شهر شعبان ورمضان وشوّال وذي القعدة.. وكان بمكّة يومئذٍ عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر بن الخطّاب، فأقبلا حتّى دخلا على الحسين عليه السلام وكانا يريدان العودة إلى المدينة، فقال له ابن عمر: أبا عبد الله رحمك الله اتَقِ اللهَ الذي إليه معادُك، فقد عرفتَ من عداوة أهل هذا البيت (البيت الأموي) لكم وظلمهم إيّاكم، وقد وَلِيَ الناس هذا الرجل (يزيد)، ولستُ آمن أنْ يميل الناس إليه لمكان هذه الصفراء والبيضاء (المال) فيقتلونك ويهلك فيك بشرٌ كثير، فإنّي قد سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يقول: «**حسينٌ مقتول ولئن قتلوه وخذلوه ولن ينصروه ليخذلهم اللهُ إلى يوم القيامة**» وأنا أُشير عليك أنْ تدخل في صلح ما دخل فيه الناس، واصبر كما صبرت لمعاوية من قبل، فلعلَّ الله أنْ يحكم بينك وبين القوم الظالمين.. فقال له الحسين ـ مستنكراً ـ عليه السلام: «**يا أبا عبد الرحمن! أنا أُبايع يزيداً وأدخلُ في صلحه**»؟!

«فقال ابن عباس: صدقت أبا عبد الله! قال النبيّ صلى الله عليه وآله في حياته: «**ما لي وليزيد لا بارك الله في يزيد وإنّه يقتل ولدي وولد ابنتي الحسين عليه السلام**» ثمّ بكى ابن عباس، فقال له الحسين: «**يا ابن عباس تعلم أنّي ابنُ بنتِ رسول الله**؟».

فقال ابن عباس: «اللهم نعم، نعلم ونعرف أنَّ ما في الدنيا أحداً هو ابن بنت رسول الله غيرُك، وأنَّ نصرك لفرضٌ على هذه الأُمّة كفريضة الصلاة والزكاة التي لا يقدر أنْ يُقبَل أحدهما دون الأخرى».

قال الحسين عليه السلام: «**يا ابن عباس! فما تقولُ في قومٍ أخرجوا ابن بنت**

رسول الله ﷺ من داره وقراره ومولده وحَرَم رَسوله ومجاورةِ قبره ومولده ومسجده يريدون في ذلك قتلَه وسفك دَمه، وهو لم يُشرِك بالله شيئاً، ولا اتّخذ من دونه وليّاً، ولم يتغيّر عمّا كان عليه رسول الله؟».

فقال ابن عباس: ما أقول فيهم إلاّ ﴿أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ [التوبة: ٥٤]، ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢ - ١٤٣] وعلى مثل هؤلاء تنزل البطشة الكبرى، وأمّا أنت يا ابن بنت رسول الله فإنّك رأسُ الفخار برسول الله وابنُ نظيره البتول، فلا تظنّ يا ابن بنت رسول الله أنَّ الله غافلٌ عما يعمل الظالمون، وأنا أشهد أنَّ مَنْ رغب في مجاورتك وطمع في محاربتك ومحاربة نبيّك محمد ﷺ فما له من خلاق[1].

فقال الحسين عليه السلام: «**اللّهم اشهَدْ**»[2].

ويعود للحوار مع الحسين عليه السلام عبدُ الله بن عمر، فيخاطب الحسين عليه السلام قائلاً: «مهلاً أبا عبد الله عما قد عزمت عليه، وارجع من هنا إلى المدينة وادخل في صلح القوم ولا تغب عن وطنك وحَرَم جدّك رسول الله ﷺ ولا تجعل لهؤلاء الذين لا خلاق لهم على نفسك حجّةً وسبيلاً، وإنْ أحببتَ ألاّ تبايع فأنتَ متروكٌ حتى ترى برأيك، فإنَّ يزيد بن معاوية عسى أنْ لا يعيش إلاّ قليلاً، فيكفيك الله أمره..».

فقال الحسين عليه السلام: «**أُفٍّ لهذا الكلام أبداً ما دامت السموات والأرض، أسألك بالله يا عبد الله أنا عندك على خطأ من أمري هذا؟ فإنْ كنتُ عندك على خطأ فُرُدّني فإنّي أخضع وأسمع وأَطيع**». فقال ابن عمر: اللّهم لا، ولم يكن الله تعالى يجعل ابنَ بنت رسوله على خطأ، وليس مثلك من طهارته وصفوته من

---

(١) نصيب.

(٢) موسوعة كلمات الإمام الحسين عليه السلام، مرجع سابق ص٣٠٦ ـ ٣٠٧.

الرسول ﷺ على مثل يزيد بن معاوية باسم الخلافة، ولكنْ أخشى أنْ يُضرَب وجهك هذا الحَسَن بالسيوف، وترى من هذه الأُمّة ما لا تحبّ، فارجع معنا إلى المدينة، وإنْ لم تحب أنْ تبايع فلا تبايع أبداً واقعد في منزل. فقال الحسين عليه السلام: **«هيهات يا ابن عمر، إنَّ القوم لا يتركوني، وإنْ لم يصيبوني فلا يزالون حتى أُبايع وأنا كاره أو يقتلوني»**[1].

ثم أقبل الحسين عليه السلام على عبد الله بن عبّاس، فقال: **«يا ابن عبّاس! إنّك ابنُ عمّ والدي، ولم تزل تأمرُ بالخير منذ عرفتُك، وكنتَ مع والدي تُشير عليه بما هو الرّشاد، وقد كان يستنصحك ويستشيرُك فتشيرُ عليه بالصواب، فامضِ إلى المدينة في حفظ الله وكَلَائِه، ولا يخفى عليَّ شيءٌ من أخبارك، فإنّي مستوطنٌ هذا الحرم، ومقيمٌ فيه أبداً ما رأيتُ أهله يحبّوني وينصروني، فإذا هم خذلوني استبدلت بهم غيرَهم، واستعصمتُ بالكلمة التي قالها إبراهيم الخليل عليه السلام يوم أُلقِيَ في النار: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣] فكانت النارُ عليه برداً وسلاماً»**[2].

(١) مرّ معنا هذا النص سابقاً وقد أثبتناه مرّة أخرى إظهاراً للجوّ الذي أحاط بثورة الحسين عليه السلام.
(٢) المصدر السابق ص٣٠٨ ـ ٣٠٩.

خوف السلطة الأمويّة من وجود الحسين عليه السلام في مكّة

وذُعرت السلطة الأموية من قدوم الإمام الحسين عليه السلام إلى مكّة، وخافت أنْ يتّخذها مقرّاً سياسياً لدعوته، ومنطلقاً لإعلان الثورة على حكومة دمشق، وقد خفَّ حاكم مكّة عمرو بن سعيد الأشدق وهو مذعور فقابل الإمام، فقال له:

ـ ما أقدمك؟

ـ **عائذاً بالله، وبهذا البيت**[1].

ولم يحفل الأشدق بكلام الإمام وإنّما رفع رسالة إلى يزيد أحاطه بها علماً بمجيء الإمام إلى مكّة واختلاف الناس إليه، وازدحامهم على مجلسه وإجماعهم على تعظيمه، وأخبره أنَّ ذلك يشكّل خطراً على الدولة الأمويّة.

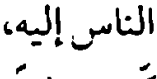

(١) تذكرة الخواص ص٢٤٨.

قلق يزيد

واضطرب يزيد كأشدّ ما يكون الاضطراب حينما وافته الأنباء بامتناع الحسين عليه السلام عن بيعته وهجرته إلى مكّة، واتخاذها مركزاً لدعوته، وإرسال العراق الوفود والرسائل إلى الدعوة لبيعته، فكتب يزيد رسالة إلى عبد الله بن عبّاس، وهذا نصُّها:

«أمّا بعد، فإنَّ ابن عمّك حسيناً، وعدو الله ابن الزبير التويا ببيعتي ولحقا بمكّة مرصديْن للفتنة، معرّضيْن أنفسهما للهلكة، فأمّا ابن الزبير فإنّه صريع القنا، وقتيل السيف غداً، وأمّا الحسين فقد أحببت الإعذار إليكم أهل البيت ممّا كان منه، وقد بلغني أنَّ رجالاً من شيعته من أهل العراق يكاتبونه ويكاتبهم ويمنّونه الخلافة، ويمنّيهم الإمرة، وقد تعلمون ما بيني وبينكم من الوصلة وعظيم الحُرمة ونتاج الأرحام، وقد قطع ذلك الحسين وبتَّه، وأنتَ زعيم أهل بيتك، وسيد بلادك، فألْقِه فارْدُده عن السعي في الفتنة، فإنْ قَبِل منك وأناب فله عندي الأمان والكرامة الواسعة، وأُجري عليه ما كان أبي يُجريه على أخيه، وإنْ طلب الزيادة فأضمن له وأقوم له بذلك، وله عليَّ الأَيْمَان المغلّظة والمواثيق المؤكّدة بما تطمئن به نفسُه، ويعتمد في كلّ الأمور عليه، عجّل بجواب كتابي، وبكلِّ حاجة لك قِبَلي والسلام».

جواب ابن عبّاس

وأجابه ابن عباس: «أمّا بعد، فقد ورد كتابك تذكر فيه لحاق الحسين وابن الزبير بمكّة، فأمّا ابن الزبير فرجلٌ منقطعٌ عنا برأيه وهداه، يكاتمنا مع ذلك أضغاناً يُسِرُّها في صدره يوري علينا وري الزناد، وأمّا الحسين فإنَّه لمّا نزل مكّة وترك حَرَمَ جدِّه ومنازل آبائه سألته عن مقدمه فأخبرني أنَّ عمّالك بالمدينة أساؤوا إليه، وعجّلوا عليه بالكلام الفاحش، فأقبل إلى حَرَم الله مستجيراً به، وسألقاه فيما أشرت إليه، ولن أدع النصيحة فيما يجمع الله به الكلمة، ويطفيء به النائرة، ويخمد به الفتنة، ويحقن به دماء الأمّة، فاتقِ الله في السرِّ والعلانية، ولا تبيتنَّ ليلةً وأنت تريد لمسلم غائلة، ولا ترصده بمظلمة، ولا تحفر له مهراة (حفرة) فكم من حافرٍ لغيره حفراً وقع فيه، وكم من مؤمّلٍ أملاً لم يُؤْتَ أملُه، وخذ بحظّك من تلاوة القرآن، ونَشْرِ السُنّة، وعليك بالصيام والقيام لا تشغلك عنهما ملاهي الدنيا وأباطيلها، فإنَّ كلَّ ما اشتغلت به عن الله يضرُّ ويفنى وكلّ ما اشتغلت به من أسباب الآخرة ينفع، والسلام[1]..».

وحفلت هذه الرسالة، بما يلي:

١ ـ إنّه لا علاقة لبني هاشم بابن الزبير، ولا هم مسؤولون عن تصرّفاته، فقد كان عدوّاً لهم يتربّص بهم الدوائر، ويبغي لهم الغوائل.

٢ ـ إنَّ الإمام الحسين عليه السلام إنّما نزح من يثرب إلى مكة، لا لإثارة الفتنة وإنّما لإساءة عمّال يزيد[2] له.

---

(١) تذكرة الخواص ص٢٤٨ـ٢٥٠.

(٢) حياة الإمام الحسين، مصدر سابق ٣١٢ـ٣١٥.

إرسال مسلم بن عقيل سفيراً للحسين عليه السلام إلى الكوفة..

ذكر السيّد ابن طاووس أنَّ آخر رسالة من رسائل أهل الكوفة للإمام الحسين عليه السلام، كان يحملها هانئ بن هانئ السبيعي، وسعيد بن عبد الله الحنفي، وقال لهما الحسين عليه السلام: «**خبّراني مَن اجتمع على هذا الكتاب الذي كُتب به إليَّ معكما؟** فقالا: يا ابن رسول الله، شبث بن ربعي، وحجّار بن أبجر، ويزيد بن الحارث بن رويم، وعروة بن قيس وعمرو بن الحجّاج، ومحمد بن عمير بن عطارد (كما ذكر الشيخ المفيد أيضاً في الإرشاد، ص٢٠٣).

وقد جاء في هذه الرسالة ما يلي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، للحسين بن عليّ أمير المؤمنين، من شيعته وشيعة أبيه أمير المؤمنين: أمَّا بعد، فإنَّ الناس ينتظرونك، لا رأي لهم غيرُك، فالعجلَ يا ابن رسول الله فقد اخضرّ الجناب، وأينعتِ الثمار، وأعشبتِ الأرض، وأورقتِ الأشجار، فأقدِمْ علينا إذا شئت، فإنَّما تَقْدُمُ على جُنْدٍ مجنّدةٍ لك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وعلى أبيك من قبلك».

رسمت الرسالة للحسين عليه السلام صورة الموقف، وأقامت بين يديه حُجّة التحرّك والانطلاق.. ولكنَّ الإمام الحسين عليه السلام، وبعد أن استعان بالصبر والصلاة، وقف في بيت الله الحرام بين يدَي ربّه وصلّى ركعتين بين الركن والمقام، وسأل الله أنْ يجعل له الخيرة من أمره، وأنْ يهديه إلى ما هو خيرٌ وصلاح.

وارتأى الإمام الحسين عليه السلام أن يرسل مندوباً عنه إلى العراق وهو ابن عمّه مسلم بن عقيل بن أبي طالب الذي شرح له ما ورد في الرسائل وما جاءت به الرُسل، وأطلعه على خفايا الأمور، ليكون قادراً على القيام بمهمّة السفارة..

قَبِل مسلم القيام بالمهمّة، واستمع إلى نصائح الحسين عليه السلام وتوجيهاته «فأمره بتقوى الله، وكتمان أمره واللّطف، فإنْ رأى الناس مجتمعين له، عجّل إليه بذلك»[1].

وكتب معه رسالةً وجّهها إلى أهل الكوفة، وقال له: **«سِرّ إلى أهل الكوفة، فإنْ كان حقّاً ما كتبوا به عرّفني حتى ألحق بك»**.

انطلق مسلم بن عقيل متوجّهاً من مكّة إلى العراق في النصف من شهر رمضان سنة ٦٠ هـ، وكان الطريق صحراوياً وطويلاً، ولا يخلو من المخاطر والأهوال، وكان الدليلان اللذان رافقاه ليدلّاه على الطريق قد ماتا من العطش[2] بعد أنْ ضلّا الطريق، وأكمل مسلم السير مع بعض رجاله بعد أن اكتشفوا الطريق نحو الكوفة، ولاحت لهم منابع الماء فحطّوا رحالهم، واستقرّ مسلم قرب الماء بمنطقة تُدعى: «المضيق من بطن الخبت» و«كتب إلى الحسين عليه السلام بأهوال الرحلة ومشاق الطريق وما لاقى في سفره المتعب هذا، ثمّ أعلم الحسين عليه السلام بأنّه ينتظر جوابه وأوامره في التحرّك والتوجّه لإنجاز المهمّة، وقد عرض عليه أن يعفيه من هذه المهمّة لو شاء ذلك. طوى كتابه هذا وبعث به رجلاً من أهل الحيّ يُدعى قيس بن مُسَهَّر، ووجّهه إلى الحسين عليه السلام في مكّة المكرّمة، وحين تسلّم الحسين عليه السلام الرسالة كتب كتاباً إلى مسلم يأمره بالمسير ويرفض طلب الإعفاء»[3].

امتثل مسلم لأمر الإمام الحسين عليه السلام وسار باتّجاه الكوفة حتّى دخلها في

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير ج٤، ص٢١.
(٢) الإرشاد، الشيخ المفيد ص٢٠٤.
(٣) المصدر السابق.

الخامس من شوّال، فنزل دار المختار بن أبي عبيدة الثقفي، واتّخذها مقرّاً لعمله ونشاطه السياسي في الكوفة..

استبشر الناس خيراً بقدوم مسلم الذي بدأ يجري اتّصالاته ويجمع القواعد الشعبية، ويأخذ البيعة للحسين عليه السلام، والوفود تُقدِّم ولاءها، والجماهير تُعلن عن استبشارها حتى أنَّ الناس كانوا يبكون وهم يسمعون مسلم بن عقيل يقرأ عليهم رسالة الإمام الحسين عليه السلام ويحيِّيهم، ويعلن استعداده للقدوم إليهم والأخذ بزمام القيادة وشؤون الأمّة..

واستمرَّ مسلم بن عقيل يجمع الأنصار ويأخذ البيعة حتى بلغ عدد مَنْ بايعه واستعدَّ لنصرته ثمانية عشر ألفاً.. بعد ذلك اطمأنّ مسلم إلى مستقبل التحرّك وكثرة الأنصار، فبادر بالكتابة إلى الحسين عليه السلام ونقل له صورةً حيّة للواقع في الكوفة وأعرب له عن تفاؤله وطلب منه القدومَ إلى الكوفة..

إنَّ البيعة للحسين عليه السلام في الكوفة وإعلان أهلها عن نصرتهم له ورفضهم للحكم الأمويّ، دفع بوالي الكوفة النعمان بن بشير المُعيّن مِنْ قِبَل يزيد إلى أنْ يعالج الموقف بالوسائل السلميّة ليحدَّ من شعبية الحسين عليه السلام إلاَّ أنّه عجز عن ذلك، وهنا قام أعوان السلطة الأموية وعلى رأسهم (عبد الله بن مسلم) وكتبوا تقريراً إلى يزيد يصوّر خطورة الموقف، وكيف أنَّ الناس بايعوا الحسين عليه السلام والتفّوا حول قيادة مسلم بن عقيل وأشاروا عليه بعزل النعمان بن بشير كونه رجلاً ضعيفاً، وبأنْ يُرسل رجلاً قويّاً يُخضِع الجماهير بالقوّة ويسحق إرادتها.. وكان من هؤلاء عمر بن سعد بن أبي وقاص وعمارة بن عقبة.

تسلّم يزيد الرسالة وراح يبحث عن أكثر الناس قسوة وقدرةً على التوغّل في الإرهاب والجريمة وأكثرهم حقداً على أهل البيت عليهم السلام وولاءً للعرش الأموي المتسلّط، فلم يجد بعد المشاورة أفضل من عبيد الله بن زياد الذي كان وقتها والياً

على البصرة ليقوم بهذه المهمّة ليستعمل العنف ضدّ أهل الكوفة، ويسفك دماءهم ويستأصل المعارضة التي توالي أهل البيت عليهم السلام، وقد كتب إليه: «أمّا بعد، فإنّه كتب إليَّ شيعتي من أهل الكوفة يخبرونني أنَّ مسلم بن عقيل فيها يجمع الجموع ليشقّ عصا المسلمين، فَسِرْ حين تقرأ كتابي هذا حتى تأتي الكوفة فتطلبَ ابنَ عقيل طَلَب الخرزة حتّى تَثْقَفَه (تلقاه) فتوثِقَهُ أو تقتُلَه أو تنفِيَه، والسلام»[1].

(١) الإرشاد، الشيخ المفيد ص٢٠٦، الإمام الحسين بن علي الشهيد عليه السلام دار التوحيد ص١٤٧ـ١٥٣.

وصول عبيد الله بن زياد إلى الكوفة[1]

يستلم عبيد الله بن زياد كتاب يزيد بن معاوية، فيتحرّك من اليوم الثاني نحو الكوفة، في الوقت الذي ينتظر فيه الناسُ الحسينَ عليه السلام حيث كانت تتهيأ لاستقباله، علماً بأنَّ أغلب جماهير الكوفة لا تعرف صورة وجه الحسين عليه السلام لأنّها لم تكن قد التَقَتْهُ من قبل، فباغت ابن زياد جماهير الكوفة وهو يُخفي وجهه ويستر على ملامحه، فتلثَّم ولَبِسَ عمامةً سوداء لتعتقد الناسُ أنّه الحسين عليه السلام..

وراح يخترق شوارع الكوفة والناس ترحّب به وتردّد؛ عليك السلام يا ابن رسول الله، وهم يظنّون أنّه الحسين بن عليّ[2]..

وبقي متوجّهاً نحو قصر الإمارة، وما سمعه من الناس كان كافياً له ليعرف مدى تعلّق الناس بالحسين عليه السلام وحبّهم له وخسارة يزيد للرأي العام، وهكذا سار باتّجاه القصر والناس ملتفّةٌ حوله ظنّاً منهم أنّه الحسين عليه السلام، فاضطرب والي الكوفة النعمان بن بشير، فأطلَّ من شرفات القصر يخاطب ابن زياد ظنّاً منه أنّه الحسين عليه السلام فخاطبه: «أُنشدك اللهَ إلاَّ ما تنحّيت، والله ما أنا بمُسْلِمٍ إليك أماني، ومالي في قتالك من أَرَب»[3].

صمت ابن زياد، ودخل إلى القصر، فما كان من النعمان إلاّ أنْ أدرك أنَّ القادم هو ابن زياد وليس الحسين عليه السلام.. بات ابن زياد ليلته في قصر الإمارة، وباتت الكوفة

(١) الإمام الحسين ـ مرجع سابق ص١٥٤.
(٢) تاريخ الطبري ج٤، ص٢٥٨.
(٣) الإرشاد، الشيخ المفيد ص٢٠٦.

على وجلٍ وترقُّب رهيب، ومنعطف سياسي خطير.. وفاجأها عند الصباح وهو يحتلُّ القصرَ بالنداء: الصلاة جامعة، فقام خطيباً في الجموع المحتشدة، وراح يمنِّي المطيع والموالي للسلطة الأموية بالأماني العِراض، ويهدّد ويتوعّد المعارضة والرافضين لحكومة يزيد، حتى قال: «سوطي وسيفي على مَنْ ترك أمري وخالَف عهدي»[1].

وقد فرض على الجموع المحتشدة أنْ يقوموا بمسؤولية التجسّس وأنْ يدلّوا السلطة على كلِّ مَنْ يقف مع مسلم في البيعة للحسين عليه السلام، وهدَّد كلَّ مَنْ لا يساهم في التجسّس للسلطة فإنَّ عاقبة قاسيةً تنزل به..

وتحت الضغط والتهديد بالعنف، راحت بوادر الإحباط والنكوص وترك مبايعة الحسين عليه السلام تظهر على جماهير الكوفة وبعض قياداتها، وراحت سلطة عبيد الله بن زياد تقوى من خلال التلويح بالقسوة والإرهاب ورشوة بعض القيادات وتسخير الجواسيس، وبثّ الدعاية المضادّة ضدّ مسلم بن عقيل وبالتالي ضدّ الإمام الحسين عليه السلام..

وهنا بدأ موقع مسلم يضعف ويهتزّ، فاضطرّته الأوضاع الجديدة أنْ يغيّر أسلوب عمله فانتقل من دار المختار الثقفي إلى دار الزعيم الكوفي الموالي لأهل البيت عليهم السلام، هانئ بن عروة، حيث بقي متخفِّياً عنده بعيداً عن أعين السلطات الأموية، حتّى استطاعت عناصر الاستخبارات الأموية أنْ تكشف المكان الذي يختبيء فيه[2].

(١) المصدر نفسه ص٢٠٦.

(٢) الإمام الحسين، مرجع سابق ص١٥٦.

تفرّق الناس عن مسلم بن عقيل

بعث عبيد الله بن زياد وفداً يدعو هانئ بن عروة لزيارته بحجّة إزالة الجفوة بينهما، وما إنْ دخل هانئ قصر الإمارة حتّى وجَدَ نفسه أمام محكمة وتُهَم تُوجَّه إليه وجواسيس يشهدون عليه أنّه يوالي الإمام الحسين عليه السلام ويعبّىء المقاومة ويشترك في تنظيم صفوفها، ويجمع المال والسلاح والأنصار ويخطّط للإجهاز على السلطة القائمة، ويتستّر على مسلم بن عقيل ويخبئُه في داره..

حاول هانئ في البداية أن يدافع عن نفسه، ولكنّه فوجئ بتعامل ابن زياد معه بالعنف فصار يضربه على وجهه وأنفه وأمَرَ بحبسه في إحدى غرف القصر..

تسرّب الخبر إلى خارج القصر، فتحرّكت قبيلة مذحج (عشيرة هانئ) وطوّقت قصر الإمارة، فاستعمل ابن زياد أسلوب الخديعة والمراوغة معهم فطلب من أحد قضاة السلطة الأموية وهو القاضي شُريح أنْ يخرج إليهم ويهوِّن عليهم الموقف ويُخبرهم بسلامة هانئ وحُسْن معاملته، فتفرّق الجميع وانفضّت المقاومة.

وصارت الكوفة في حالة اضطراب وغليان، وراح الناس يتحدّثون عن اعتقال هانئ وراحت الأراجيف تنتشر في كلِّ مكان، ومنها أنّ جيشاً كثيفاً على وشك القدوم من الشام لإسناد موقع السلطة الأموية واستئصال المعارضة ومطاردة مسلم لاعتقاله واعتقال أتباعه، فبدأ الضعف والخور والخوف يتشر في صفوف الثوّار ويستولي على الرأي العام..

كلُّ هذا ومسلم بن عقيل يراقب الموقف، وقد اتّخذ قراراً بالزحف على قصر الإمارة والاستيلاء عليه والقضاء على حكومة عبيد الله بن زياد، فجمع رجاله وأنصاره الذين كانوا قد بايعوه وانضمّوا إلى حركته، وهاجم قصر الإمارة، وكانت قوّاته في البداية تفوق قوّات ابن زياد كثيراً، فتحصَّن ابن زياد وأتباعه بالقصر وأغلقوا الأبواب، وراح يُسرِّب بعض أتباعه ليبثوا الدعاية في صفوف الثوّار والناس بأنَّ جيشاً جرّاراً سيأتي من دمشق ويقضي على حركة المعارضة التي يقودها مسلم بن عقيل بالكامل، إضافة إلى أنَّ هؤلاء الجواسيس صاروا يخوّفون الناس ويثبّطون عزائمهم بأنَّه ليس من فائدة في قتال عبيد الله بن زياد..

بهذا الأسلوب بدأت تتفتّت قوى الثوّار، وصاروا يتفرّقون عن مسلم وينصرفون عنه، وما إنْ نشر الظلام أجنحته حتى لم يبقَ مع مسلم بن عقيل إلاّ عشرة رجال دخلوا معه المسجد وكانوا في بداية الانطلاقة يُقدَّرون بأربعة آلاف مقاتل..

وقد ذكر السيّد ابن طاووس أنَّ معركة دارت بين أنصار مسلم وأنصار عبيد الله بن زياد.. حتّى جاء الليل فجعل أصحاب مسلم يتفرّقون عنه ويقول بعضهم لبعض، ما نصنع بتعجيل الفتنة، وينبغي أنْ نقعد في بيوتنا، وندعَ هؤلاء القوم حتّى يُصلح الله ذاتَ بينهم، فلم يبقَ معه سوى عشرة أنفس، فدخل مسلم المسجد ليصلّي المغرب فتفرّق العشرة عنه[1].

بقي مسلم بن عقيل وحيداً يسير متخفّياً في شوارع الكوفة علّه يهتدي إلى حلٍّ قبل أنْ يقع بيد السلطة الأموية، وليبلّغ الحسين عليه السلام ـ الذي ما زال في المسير نحو الكوفة ـ ما الذي جرى معه وكيف نقَضَ الناس البيعة وتفرّقوا وأصبح وحيداً لا يلوي على شيء..

وهو يسير، قاده الطريق إلى بابِ بيتٍ كانت تقف على عتبة بابه امرأة اسمها

(١) مقتل الحسين، ابن طاووس ص٢٢.

(طوعة) شاءَ الله أنْ يخلّد اسمها في سجلّ الجهاد.. وقف على باب البيت والحيرة تسيطر على مشاعره، طلب منها الماء، وجاءته به، شَرِب ثمّ جلس على باب الدار لا يدري أين يتوجّه. أثار وضعُه الحائر وجلوسُه عند باب البيت، انتباهَ طوعة، فسألته: ألَمْ تشرب الماء؟ إذاً لِمَ لا تنصرف؟ أَفْهَمَها بأنّه غريب ثم عرّفها بنفسه «أنا مسلم بن عقيل بن أبي طالب سفير الحسين ورسوله إلى الكوفة وابن عمّه» فتحت له باب البيت ثمّ أدخلته فاختبأ ليقضي ليلته وينظر ماذا سيكون الغد[1].

أدرك عبيد الله بن زياد ما آلت إليه أوضاع الكوفة وكيف تشتّت المقاومة ضدّه وما حلَّ بمسلم بن عقيل من إرباك وضياع، ولكنّه لم يكن قد عرف بعدُ مكانه، فطلب من جميع الناس وتحت التهديد والتخويف والإرهاب والرشوة الذهاب إلى المسجد لصلاة العشاء، بعد الصلاة راح يوجّه خطابه إلى أهل الكوفة، يهدّد وينذر ويتوعّد، وممّا قاله:

«أمّا بعد، فإنَّ ابن عقيل السفيه الجاهل قد أتى ما قد رأيتم من الخلاف والشقاق، فبرئت الذمّة من رجلٍ وجدناه في داره»[2] وصار يتهدّد ويتوعّد كلَّ مَنْ يحاول حماية مسلم بن عقيل.. وأصدر أوامره بتفتيش بيوت الكوفة بيتاً بيتاً..

وقد كان لطوعة التي أوجدت لمسلم مكاناً في بيتها للاختباء، ولدٌ، فسارع إلى ابن زياد تحت وطأة الخوف والطمع بنيل الجائزة المرجوّة لمن يُدلي بمعلومات عن مكان مسلم، فأبلغه بأنَّ مسلماً مختبئٌ في منزل أُمّه..

انطلق سبعون فارساً إلى منزل طوعة بهدف الإمساك بمسلم الذي سمع وَقْعَ حوافر الخيل وضجيج الرجال، فتأهّب للقتال، فدخلوا الدار، وحصلت

---

(١) تاريخ الطبري ج٤، ص٣٧٧.

(٢) الإرشاد، الشيخ المفيد ص٢١٣.

المواجهة بينه وبينهم رافضاً الاستسلام، ومُؤْثِراً الاستشهاد على الذلّ، قاتلهم قتال الأبطال ولم يستطيعوا النيل منه، لجأوا إلى أسلوبٍ آخر، فراحوا يلقون عليه النيران والحجارة فاضطرّوه إلى ترك الدار والخروج إلى الطريق العام دون أنْ يُلقي سلاحه، وهو ماضٍ في الضرب والقتال حتى أثخنته الجراح وكثُر النزف عليه، فنادوا: لكَ الأمانُ، قَبِل مسلم نداءهم وسار معهم، وفي الطريق تنكّروا لأمانهم، فجرّدوه من سلاحه وتركوه أعزلَ.

أُتِيَ به إلى قصر الإمارة فدخل على ابن زياد ولم يُحيِّه بتحيّة الإمارة، ثمّ وقف أمام ابن زياد بكلِّ أنفةٍ وكبرياء، ودار بينهما مشادة عنيفة، انتهت بقول ابن زياد: إنَّك مقتول، فأجاب مسلم: إذاً هَبوني فرصة أوصي فيها وصيّتي.

رضخ ابن زياد لطلب مسلم، فوقع اختياره على عمر بن سعد لحفظ الوصيّة وأدائها، لوجود قرابة وصلة رَحِم بينهما، أوصى مسلم بوصايا من جملتها أنْ يُباع سيفه ودرعه لقضاء دَيْنه..

بعد ذلك أمَرَ عبيد الله بن زياد عسكره أن يصعدوا بمسلم أعلى القصر، وقال لبكر بن حمران الذي كان مسلم قد جرحه جروحاً بليغة: خذ السيف، واضْرب عنقه، ثمّ ألقِ بجسده ورأسه من أعلى القصر..

اقتيد مسلم وهو يكبِّر الله ويُمَجِّده، ويستقبل الشهادة بنفس راضية وروح بطوليّة عالية، فانهال سيف الغدر على رأسه ليلتحق بالشهداء والصدّيقين والنبيّين والصالحين، ثمّ امتدّت سيوف الجلّادين إلى هانئ بن عروة، واقتيد مكتوف اليدين إلى سوق الغنم في الكوفة، فقُتِلَ هناك واقْتُطِعَ رأسُه، وبُعِث به وبرأس مسلم بن عقيل إلى الشام ليوضعا بين يَدَي يزيد بن معاوية، أمّا الجسدان فشدّهما الجلّادون بالحبال وجُرّا في أزِقّة الكوفة وأسواقها[1].

---

(١) استشهد مسلم وهانئ في الكوفة يوم الأربعاء التاسع من ذي الحجّة، ولكلٍّ منهما الآن في الكوفة مقام وضريح يقصدهما الزوّار.

وهكذا انتهت المقاومة وخَمدت الثورة في الكوفة لتبدأ ثورةٌ جديدة، ولتتحوّل هذه الدماء الحرّة الثائرة إلى بركان غضب وثورة، يصمت برهةً لينفجر فيما بعد بعنف وشدّة، ولتكون عاصفةً تهدأ فترة، لتهبَّ رياحها الكواسح على تلك الهياكل المنتصبة على جماجم الثائرين من أجل الإصلاح والهداية[1].

(١) الإمام الحسين بن علي الشهيد عليه السلام دار التوحيد ١٥٤ـ١٦٣.

إلى العراق

جرت كلُّ هذه الأحداث في الكوفة، والحسين عليه السلام لم يعلم بما جرى فيها من نقض للبيعة، ومن مقتل مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة، ومن انهزام الناس وخوفهم من السلطة الأمويّة وإيثارهم الدنيا على الآخرة..

وعندما كان عليه السلام في مكّة وقبل أنْ تتبدّل الأوضاع في الكوفة لصالح السلطة الأمويّة، تسلّم[٢] الحسين عليه السلام خطاب مسلم بن عقيل وتقريره عن الأوضاع والظروف السياسيّة واتّجاه الرأي العام «المؤيّد للحسين عليه السلام»، فقرّر الإمام التوجّه من مكّة المكرّمة إلى الكوفة، ليبدأ من هناك مَهام الإمامة والقيادة، فجمع نساءه وأطفاله وأبناءه وأخوته وأبناء أخيه وأبناء عمومته.

وانتشر خبر قرار هجرة الإمام الحسين عليه السلام من مكّة المكرّمة إلى العراق، وصار العديد من المحبّين له عليه السلام يتوسّلون إليه ويطلبون منه عدم الذهاب إلى الكوفة.. فاعتذر عليه السلام من جميع المحبّين والمخلصين رافضاً أيَّ هدنة مع السلطة الأمويّة، لأنَّه أحسَّ أنَّ خطراً داهماً يهدّد الإسلام وأنَّ قعوده وسكوته لا يعنيان السلامة.

إذاً، لا بدَّ للحسين عليه السلام من المسير وإعلان الثورة، لذلك اعتذر من عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، ومن محمد بن الحنفية (أخيه) ومن ابن عمّه عبد الله بن جعفر الطيّار زوج السيّدة زينب عليها السلام وعبد الله بن عبّاس، ولم يرضخ لاقتراحاتهم، بل رفض الأمان الذي حصل عليه عبد الله بن جعفر الطيّار

(٢) م.ن ص١٦٤ بتصرّف.

للحسين عليه السلام من عمرو بن سعيد بن العاص عامل يزيد على مكّة.

انطلق الحسين عليه السلام من مكّة المكرّمة يوم التروية، يوم الثامن من شهر ذي الحجّة عام ٦٠ للهجرة متوجّهاً إلى العراق بعد أنْ كتب إليه مسلم بن عقيل، وطلب منه القدوم.. يقطع الفيافي والقفار ذاهباً نحو مواجهة الظالمين ومغتصبي الخلافة الإسلامية.. وكلّما مرّ به مسافرون وركبان أو التقى به قادمون من العراق خافوا عليه، وكرّروا عليه النصيحة والقول: ارجع يا بن رسول الله، وكثيراً ما كان يقول عليه السلام: «**والله لا يدعوني حتّى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي، فإذا فعلوا سلّط الله عليهم مَنْ يُذِلُّهم**». وكان يقول لعبد الله بن الزبير بعد حوار كان بينهما في مكّة: «**إنَّ أبي حدّثني أنَّ لها (أي مكّة) كبشاً بها تُستحلُّ حرمتُها، فما أُحبُّ أنْ أكون ذلك الكبش**»[1] ثمّ قال له: «**واللهِ لأن أُقتَلَ خارجاً منها (أي مكّة) بِشِبْرٍ أحبُّ إليَّ مِنْ أن أُقتلَ منها بشبر، وأيم الله لو كنتُ في حجر هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتّى يقضوا فيَّ حاجتهم**»[2].

إذاً، انطلق رَكْبُ الحسين عليه السلام يوم الثامن من ذي الحجّة، فوصل خبر خروج الحسين إلى والي يزيد على الحجاز عمرو بن سعيد بن العاص، فأرسل مجموعةً من رجاله ليعترضوا مسير الحسين عليه السلام فتواجَهَ معهم بعنف، وتضارب الفريقان بالسياط، فانسحب رجال عمرو بن سعيد بن العاص، ومضى رَكْبُ الحسين لا يلوي على شيء.

وفي الطريق يلتقي الحسين عليه السلام بالفرزدق الشاعر المعروف في موضع يُقال له (الصّفاح)، فسأله الحسين عليه السلام وطلب منه أن يصف له الأوضاع التي تركها وراءه، فوصفها الفرزدق، بقوله: «قلوب الناس معك وسيوفُهم مع بني أُميّة، والقضاء ينزلُ من السماء، واللهُ يفعل ما يشاء».

---

(١) الكامل في التاريخ ج٤، ص٣٩.

(٢) تاريخ الطبري ج٤، ص٢٨٩.

فقال الحسين عليه السلام: «صدقت، لله الأمر، والله يفعل ما يشاء، وكلّ يوم ربُّنا في شأن، إنْ نزل القضاء بما نحبُّ فنحمد الله على نعمائه، وهو المستعان على أداء الشكر، وإنْ حال القضاءُ دون الرّجاء فلم يعتدِ مَنْ كان الحقُّ نيَّته»[1].

(١) تاريخ الطبري ج٤، ص٢٩٠.

اضطراب وخوف الأمويّين من مسير الحسين عليه السلام

سرى نبأ مسير الحسين عليه السلام، فاضطرب الموقف الأموي، وشعرت السلطات بالخوف من انقلاب سياسي يطيح بعرش يزيد، ومَاجَ الحجاز والعراق بأهله، وتحدّثت الرّكبان بأنباء الثائر العظيم، وتحرّكت أحياء الأعراب على طول خطّ المسير، فكلّما ورد الحسين عليه السلام ماءً أو مرَّ بحيٍّ التحق به جمعٌ من الأعراب، فتناهى الخبر إلى عبيد الله بن زياد وهو والي يزيد على الكوفة، وعَلِمَ بمسير الحسين عليه السلام فأعدَّ جنده ورجاله ووضع خطّة لقطع الطريق أمام الحسين عليه السلام والحيلولة دون وصوله إلى الكوفة، فبعث مدير شرطته الحُصَين بن نمير التميمي، وكلّفه بتنفيذ المهمّة، فاختار الحصين موقعاً استراتيجياً يسيطر على طريق مرور الحسين عليه السلام فنزل بالقادسية واتّخذها مقرّاً لقيادته.. أمّا الإمام الحسين عليه السلام فما زال مُجِدّاً في السير نحو العراق، حتى بلغ موضعاً يسمّى (الحاجز) ومِنْ هناك كتب كتاباً إلى أهل الكوفة يشحذ فيه هِمَمهم، ويحثّهم على الثبات والمواجهة، ويُعْلِمُهم بمسيره وقدومه. وأوفد بكتابه هذا قيس بن مسهّر الصيداوي، فانطلق نحو الكوفة يحمل كتاب الحسين عليه السلام ويبشّر بقدوم القائد المغوار لتستعد للاستقبال، إلاّ أنَّ قيساً لم يستطع تنفيذ مهمّته فقد وَقَعَ أسيراً بيد قوات الحصين المنتشرة في القادسيّة، فنُقِل إلى عبيد الله بن زياد الذي طلب منه وتحت التهديد والوعيد أنْ يصعد المنبر ويسبَّ الحسين عليه السلام، إلاّ أنَّه لم يضعُف ولم يستجب له طلبه، بل كان جريئاً وكانت بطولته نادرة، فصعد المنبر وحثَّ الناس على نصرة الحسين عليه السلام، ولعن ابن زياد وأباه واستغفر

لعليّ عليه السلام.. فاستشاط ابن زياد غضباً، وطلب من جلاوزته أنْ يصعدوا به إلى أعلى القصر ويرموه إلى الأرض، وأُلقي برسول الحسين عليه السلام من فوق قصر الإمارة وتقطَّع جسدُه الطاهر، واستُشْهِد (رضوان الله عليه)..

وبدأ ميزان القوى يميل لمصلحة سلطة يزيد بن معاوية، وانتشرت الشائعات والأراجيف المضادّة، وقُتِلَ ـ كما مرّ معنا سابقاً ـ مسلم بن عقيل وهانئ بن عروة، وسُجِنَ المختار بن عبيدة الثقفي، وانقلبت الكوفة على أعقابها.. والحسين عليه السلام يواصل المسير، ويبعث بالرسل، وليس لديه معلومات جديدة عن تطوّر الأحداث ومجريات الأمور، فأرسل عبد الله بن يقطر الذي كانت أمّه مرضعة للإمام الحسين عليه السلام ليستجلي الموقف ويضع الحسين عليه السلام في صورة الأحداث..

ومع وصول الإمام الحسين عليه السلام إلى منطقة تُدعى (الثعلبيّة)، فوجئ عليه السلام باستشهاد مسلم بن عقيل، وعَلِمَ أنَّ رسوله إلى هناك عبد الله بن يقطر قد وقع أسيراً بيد جنود الحصين الذين اتّخذوا مواقعهم في أماكن تسيطر على طريق المرور حول القادسية، فنُقِل من القادسية إلى عبيد الله بن زياد.

وكان كرسول الحسين عليه السلام السابق «قيس بن مسهّر الصيداوي» مثالاً للصلابة والجرأة والإخلاص، فقد طلب منه ابن زياد أن يصعد فوق القصر، ويسبّ الحسين عليه السلام فصعد عبد الله بن يقطر وسبَّ عبيد الله بن زياد، وأخبر الناس بقدوم الحسين عليه السلام، فما كان من ابن زياد إلاّ أنْ أمر بإلقائه من فوق القصر، والتحق (رضوان الله عليه) ببقيّة الشهداء..

ووصل خبر استشهاده للإمام الحسين عليه السلام وهو في موضع يُدعى (زُبالة)، وهكذا راحت تتوارَد على الحسين عليه السلام أنباء الانتكاسة، وتلوح له بوادر الانعطاف الخطير، وشعر بالخذلان ونقض العهود، فوقف في أصحابه وأهله

يبلغهم ما فعله معه أهل الكوفة وكيف انهزموا وتنكّروا لبيعته، فوجّه خطابه إليهم، مُصارِحاً إيّاهم، قائلاً لهم:

«لقد خذلنا شيعتُنا، فمن أحبَّ أنْ ينصرف فلينصرف، ليس عليه منّا ذِمام»، فتفرّقوا يميناً وشمالاً حتّى بقي معه أصحابه وأهل بيته الذين جاؤوا معه من مكّة[1].

استقرَّ الحسين عليه السلام تلك الليلة في (زُبالة) وهو ينعى مسلم بن عقيل وهانىء بن عروة وعبد الله بن يقطر ويفكّر في مصير الأُمّة، وفي الصباح واصل المسير مارّاً (ببطن العقبة) عبر مسالك الصحراء الوعرة حتّى وصل موقعاً يُقال له (شراف)، وقضى ليلته هناك، ومع الصباح تحرّك موكبُ الحسين عليه السلام، وما إن انتصف النهار حتى نظر رجلٌ من أصحاب الحسين عليه السلام فلاحَت له عن بُعد مساحات سوداء وأشباح مبهمة حسبها جنائن النخيل وبساتين العراق، فكبّر بصوتٍ مرتفع فأجابه الحسين عليه السلام مكبّراً، ثمّ سأله: لِمَ كبّرت؟ قال: رأيتُ النخيل، فظنَّ أنّهم قد دخلوا أرض العراق ولحقوا بأحيائها.

لم يكن الذي شاهده الرجل هو أشجار النخيل ولا بساتين سوداء، ولكنّها القطعات العسكرية الزاحفة، من الجند والخيول والرماح والرايات، لذا أجابه أصحابه ليس في هذه الأرض نخلةٌ قطّ، فقال الحسين عليه السلام: **ما ترون إذاً؟** قالوا: والله أذان الخيل (كناية عن كثافتها) فردَّ الحسين عليه السلام قائلاً: **أنا والله أرى ذلك..**

فوجئ الحسين عليه السلام وأصحابه مع قلّة العدد وعدم التهيّؤ للقتال وانكشاف الأرض بهذا الجيش الكثيف الزاحف نحوهم من القادسيّة، فاستشار أصحابه، فأشاروا عليه بالاتّجاه إلى جبل (ذو حسم) والتحصُّن به، وعندما أمرهم

(١) تاريخ الطبري ج٤، ص٢٩٧.

الحسين عليه السلام بالتوجّه نحو ذلك الجبل، تقدّم نحوهم ألف مقاتل يزحفون نحوهم بسرعة بقيادة الحرّ بن يزيد الرياحي الذي أُمِرَ بمحاصرة الحسين عليه السلام والتضييق عليه، فراح الحرُّ يضايق الحسين عليه السلام ويسابقه لاحتلال الموقع الاستراتيجي الحصين من الجبل، فسبقه الحسين عليه السلام إلى الموقع وأقام خيامه هناك..

كان الوقت ظهراً، والحَرُّ شديداً وجيش الحرّ يكتوي بحرّ الظهيرة وخيوله تلهث مِنَ العطش، ورجاله تتلوّى من الظمأ، ومع كلّ ذلك اندفع نحو الحسين عليه السلام وأمر رجاله بالوقوف أمام مضاربه والإحاطة بموقعه..

نظر الحسين عليه السلام إليه بأخلاق النبوّة التي عامل بها رسول الله صلى الله عليه وآله أهل مكّة يوم الفتح والنصر، ولأنَّ الماء كان تحت سيطرة الحسين عليه السلام أمَرَ رجاله بسقي الخيل والرجال..

وعندما حان وقت صلاة الظهر، صلّى الحسين عليه السلام بالمعسكرين، معسكره ومعسكر الحرّ بن يزيد الرياحي، وبعد أنْ فرغ من الصلاة قام عليه السلام خطيباً بين المعسكرين موضحاً للحرّ والجند الذين كانوا معه رأيه ومبادئه، ثمّ طالبهم «كونهم من أهل الكوفة الذين طلبوا منه المجيء إلى العراق» بالوفاء بالعهود والمواثيق، وذكّرهم بالكتب والرّسل التي أرسلوها إليه، فسكت الجميع ولم يردّوا على الخطاب..

ثمّ بقي المعسكران بعد الصلاة وخطبة الحسين عليه السلام متواجهين دونما تحرّش أو استفزاز عسكري.. وعند العصر وبعد الصلاة تهيّأ الإمام الحسين عليه السلام للرحيل، ثمّ وجّه خطاباً آخر لجيش الحرّ، ونَثَرَ أمامهم خُرْجَيْن مملوءين كتباً ورسائل من أهل العراق يدعونه فيها للقدوم والبيعة.

وحاول الحسين عليه السلام الانصراف فلم يتركه الحرُّ بن يزيد الرياحي، وبعد

جدال بينه وبين الحسين عليه السلام، قال له: إنّي أُمِرْتُ أنْ أُقدمك الكوفة، ثمّ اقتنع بأنْ يأخذ الحسين عليه السلام طريقاً، لا يوصله إلى الكوفة ولا يردُّه إلى المدينة، فسار الحسين عليه السلام على ذلك، وسارَ الجيش الأموي يراقبه ويطوّق حركته، والحرُّ يحاوره ويُهدِّده بالقتال، فيردُّ عليه الحسين عليه السلام:

«أفبالموت تُخَوِّفني، وهل يعدو بكم الخطبُ أنْ تقتلوني، وسأقول كما قال أخو الأوس لابن عمّه وهو يريد نُصرة رسول الله صلى الله عليه وآله فخوّفه ابن عمّه، وقال: أين تذهب، فإنَّك مقتولٌ فقال:

سأمضي وما بالموتِ عارٌ على الفتى ... إذا ما نوى حقّاً وجاهدَ مُسْلِمَا
وواسى الرِّجالَ الصَّالحينَ بنفسِهِ ... وفارقَ مَثْبوراً وخالفَ مُجْرِما
فإنْ عِشْتُ لم أندم وإنْ مُتُّ لم أُلَمْ ... كفى بِكَ ذُلّاً أنْ تعيشَ وتُرغَمَا[1]

يَئِسَ الحرُّ من الحسين عليه السلام وتنحّى عنه، فسار الحسين عليه السلام حتّى انتهى إلى منطقة «عذيب الهجانات» ثمّ استمرّ حتى وصل إلى «قصر بني مقاتل» فنزل به، وفي ساعة متأخّرة من الليل أمر فتيانه بالتزوّد من الماء والبدء بالرّحيل، وامتطى الحسين عليه السلام جواده، وقد أخذ السّهر والإعياء منه مأخذه، فغشيه النوم لحظة، ثمّ انتبه وهو يقول:

«إنّا لله وإنّا إليه راجعون، والحمد لله ربّ العالمين، ففعل ذلك مرّتين أو ثلاث، فأقبل ابنه عليٌّ بن الحسين عليه السلام، فقال: مِمَ حمدت اللهَ واسترجعت يا أبه؟ فقال: يا بُنيّ إنّي خفقتُ خفقةً فعنَّ لِيَ فارسٌ وهو يقول: القوم يسيرون والمنايا تسير إليهم، فعلمتُ أنّها أنفسنا نُعِيَت إلينا. فقال له: يا أبَه لا أراك الله سوءاً أَلَسْنا على الحقّ؟ قال: بلى، والذي إليه مرجع العباد. قال: فإنّنا إذن لا نبالي أنْ نموت مُحِقّين. فقال له الحسين عليه السلام: جزاك اللهُ من ولدٍ خيرَ ما جزى ولداً عن والده»[2]..

---

(١) الإرشاد، الشيخ المفيد ص٢٢٥.
(٢) تاريخ الطبري ج٤، ص٣٠٨.

ويكمل الحسين عليه السلام مسيرته، وبدأ يظهر وجه الصباح المليء بالأسرار والمفاجآت.. نزل الحسين عليه السلام وصلّى صلاة الصبح، ثمّ انطلق ركبه وهو يتباعد من جهة الكوفة، حتّى انتهى إلى موقع يُدعى (نينوى)، وفي نينوى، في هذه القرية بدأ الموقف يأخذ أبعاداً جديدة، والأحداث تتحرّك متسارعة، ففيها هبّت نُذُرُ العاصفة، فقد فوجئ الحرُّ برسالة من عبيد الله بن زياد يقول له فيها:

«أمّا بعد، فجعجع بالحسين حتى يبلغك كتابي، وَيَقْدُمَ عليك رسولي، فلا تُنزِله إلاَّ بالعراء في غير حصنٍ وعلى غير ماء، وقد أمرتُ رسولي أنْ يلزمك ولا يُفارقَك حتّى يأتيني بإنفاذك الرأي، والسلام».

انتهى الحرُّ من قراءة الكتاب ثمّ توجّه إلى الحسين عليه السلام فقرأه عليه، وأطلعه على رأي عبيد الله بن زياد فيه، فقال له الحسين عليه السلام: **إذن، دعنا ننزل (نينوى) أو (الغاضريات) أو (شفية)**.. رفض الحرُّ طلبَ الحسين عليه السلام وتذرّع بالخوف من عناصر الاستخبارات والرقابة في جيشه، ثمّ بادر زهير بن القَيْن[1]، واقترح على الحسين عليه السلام النزول في منطقة قريبة تُدعى (العقر) فرفض الحسين عليه السلام ذلك، وأصرَّ على مواصلة المسير لِيَرِدَ أرض الميعاد في كربلاء، وقبل أنْ يتحرَّك الرَكب، ويواصل السير قام الإمام الحسين عليه السلام خطيباً، فقال:

«إنّه قد نزل من الأمر ما قد تَرَوْن، وإنَّ الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت وأدبر معروفها، واستمرت حذّاء (مقطوعة)، ولم يَبْقَ منها إلاّ صُبابةٌ كصُبابة الإناء، وخسيسُ عيشٍ كالمرعى الوبيل (السيّئ)، ألَا ترَوْن إلى الحقِّ لا يُعْمَلُ به، وإلى الباطل لا يُتناهي عنه، ليرغبِ المؤمنُ في لقاء ربِّه مُحقّاً، فإنّي لا أرى الموتَ إلاّ سعادةً، والحياة مع الظالمين إلاَّ بَرَماً (المَلَل والكراهية)».

---

(١) زهير بن القين أحد أصحاب الإمام الحسين عليه السلام الذين انضموا إليه في الطريق في منطقة (زرود). المقرّم/ مقتل الحسين عليه السلام ص١٧٧.

وهنا يذكر ابن طاووس بأنَّ زهير بن القين «قال: قد سمعنا مقالَتَك، هداك الله يا ابن رسول الله، ولو كانت الدنيا لنا باقية وكنّا فيها مخلّدين لآثرنا النهوض معك على الإقامة».

وقام هلال بن نافع البجلي، فقال: «والله ما كرهنا لقاء ربّنا وإنَّا على نيّاتنا وبصائرنا نوالي مَنْ والاك ونُعادي مَنْ عاداك وقام بُرير بن خضير فقال: والله يا ابن رسول الله لقد منَّ الله بك علينا أنْ نقاتل بين يديك وتُقطّع فيك أعضاؤنا ثمّ يكون جدُّك شفيعنا يوم القيامة»[1].

(١) مقتل الحسين عليه السلام، ابن طاووس ص٤٨.

إلى كربلاء

سار الحسين عليه السلام بالركب الذي معه، حيث الموعد والمثوى[1]، ولم يقطع مسافات طويلة حتى اعترضه الجيش الأموي، واضطرّه للنزول، توقّف عليه السلام وراح يسأل: «**ما اسم هذه الأرض؟** فقيل له: أرض (الطف) فقال: **هل لها اسمٌ آخر غير هذا؟** قيل: اسمها كربلاء. فقال: **اللّهم أعوذُ بكَ من الكرب والبلاء، ثمّ قال: هذا موضع كربٍ وبلاء، انزلوا، ها هنا محطُّ رحالنا، ومَسْفَكُ دمائنا، وها هنا محلّ قبورنا، بهذا حدّثني جدّي رسول الله** صلى الله عليه وآله»[2].

اليوم هو الخميس الثاني من المحرّم سنة ٦١ للهجرة، وها قد نزل الحسين عليه السلام في أرض كربلاء، أرض الدماء والفداء والشهادة، وضرب فسطاطه وراح يُعِدُّ سلاحه ويصلح سيفه، ويردِّد الشعر قائلاً:

يا دهــرُ أُفٍّ لــكَ مِــنْ خليلِ   كـمْ لـكَ بـالإشـراقِ والأصيلِ
مـن طـالـبٍ وصـاحـبٍ قتيلِ   والــدَّهْــرُ لا يـقـنَـعُ بالبديلِ
وكــلُّ حــيٍّ ســالــكٌ سبيلي   ما أقـربَ الوعدَ مِـنَ الرّحيلِ
وإنّــمـا الأمــر إلــى الجليل[3]

تسمعه السيدة زينب عليها السلام أخته الحوراء حاملة لواء التعريف بالثورة من

(١) الإمام الحسين عليه السلام الشهيد، دار التوحيد ص١٧٨.
(٢) مقتل الحسين عليه السلام للسيد ابن طاووس ص٣٣.
(٣) تاريخ الطبري ج٤، ص٣١٩.

بعده، وتقرأ من خلال الشعر مشاعره وأحاسيسه، فتناديه بصوتٍ يملؤه الحنان ويشوبه الذعر: «**هذا كلامُ مَنْ أيقنَ بالقتل**، فقال عليه السلام: **نعم يا أُختاه**، فقالت زينب: **واثكلاه ينعى الحسينُ إليَّ نفسه**»[1].

※ ※ ※

(١) م. ن ج٤، ص٣١٩.

عمر بن سعد وإيثاره حبُّ الدنيا على حبّ الله

وراح عُبَيْد الله بن زياد يبعث بقوّاته المسلحة بشتّى صنوفها المتوفّرة لديه، وكان من أبرز الذين انتدبهم لتنفيذ الجريمة ومقاتلة الحسين عليه السلام هو عمر بن سعد، فاعتذر في بادئ الأمر إلاّ أنّه خضع بعد ذلك لتهديد ابن زياد بسحب العهد المكتوب له بولاية الرّي، بعد أنْ بات ليلته يصارع نفسه بين المُلك ومطامع الدنيا، ومظاهر الأُبهة والسلطة وبين الالتزام بمبادئ الحقّ والعدل، والتنزّه عن الإيغال بالجريمة والدماء الطاهرة، فاختار حطام الدنيا والركض وراء السراب والأوهام الخادعة، وقد سُمع يقول ويردِّد الشعر:

أَأَتْـرُكُ مُلْكَ الرّيِّ والرّيُّ مُنيتي ... أَمَ ارجَـعُ مذموماً بقتلِ حُسَينِ

وفي قتلهِ النّارُ التي ليسَ دونَها ... حجابٌ ومُلْكُ الرّيِّ قُرّةُ عينِ[1]

وَقَبِل التكليف بمحاربة الحسين عليه السلام، فاتّجه نحوه وهو يقود أربعة آلاف مقاتل، وحاصر مخيّمَ الحسين عليه السلام، وقد بادر عليه السلام لفتح الحوار معه، واجتمع به عدّة اجتماعات، فكتب عمر بن سعد إلى عبيد الله بن زياد يقترح عليه فكرةً توصّل إليها مع الإمام الحسين عليه السلام، وهي أنْ يرفع الحصار عن الحسين عليه السلام ويفتح أمامه مجال العودة ويوقف نزيف الدم الذي بدأ يأخذ مجراه على أرض العراق.

(١) الكامل في التاريخ، ابن الأثير ج٤، ص٥٢ و٥٣.

دور الشمر بن ذي الجوشن في إحباط مشروع العودة

وصل الكتاب إلى ابن زياد، فاستحسن الفكرة في بادئ الأمر وحاول العمل باقتراح عمر بن سعد، إلاّ أنَّ الشمر بن ذي الجوشن الذي كان من ألدِّ أعداء الحسين عليه السلام والحاقدين عليه حذّر عمر بن سعد من أنَّ الحسين عليه السلام إنِ استطاع النجاة من هذا الحصار سيكون في موقع القوّة، وسينقلب الميزان العسكري لمصلحته، وما عليه إلاّ استغلال الموقف وإرغام الحسين عليه السلام على الاستجابة للبيعة والخضوع لإرادة عبيد الله بن زياد..

استجاب ابن زياد إلى اقتراح الشمر وحمّله رسالة تهديديّة إلى عمر بن سعد، وأمره بتنفيذ القرار أو الاعتزال وتسليم الأمور إلى الشمر، وجاء في الرسالة:

«إنِّي لم أبعثك إلى الحسين لتكفَّ عنه ولا لِتُطاوِلَه ولا لتمنّيه السلامة والبقاء، ولا لتعتذر عنه، ولا لتكون له عندي شافعاً، انظرْ فإنْ نزل الحسين وأصحابه على حكمي واستسلموا فابعث بهم إليَّ سِلْماً، وإنْ أَبَوْا فازحفْ إليهم حتّى تقتلهم، وتمثّل بهم، فإنّهم لذلك مستحقّون، وإنْ قُتِلَ الحسين فأوطِئ الخيل صدرَه وظهرَه، فإنَّه عاقٌّ ظلوم، ولستُ أرى أنَّ هذا يضرُّ بعد الموت شيئاً، ولكن على قولٍ قد قلتُه: أنْ لو قتلتُه لفعلتُ هذا به، فإنْ أنتَ مضيتَ لأمرنا فيه جزيناك جزاء السامع المطيع، وأنْ أبيتَ، فاعتزلْ عملنا وجندَنا، وخَلِّ بين شمر بن ذي الجوشن وبين العسكر، فإنَّا قد أمرنا بأمرنا، والسلام»[1].

(١) الإرشاد، الشيخ المفيد ص٢٢٩.

نُذُر الشرّ الشيطاني

حرّك عمر بن سعد جيوشه وفرسانه في السابع من المحرّم لتطويق الحسين عليه السلام من جانب الفرات والحيلولة بين آل الرسول وبين الماء ليموتوا عطشاً أو يضطرّوا للتسليم كجزء من خطّة الحرب والحصار.. وهكذا تجمّعت نُذُر الشرّ في نفس ابن سعد، وجمع خيله ورجاله وبدأ يزحف نحو مخيّم الحسين عليه السلام..

ابتدأ الزحف الآثم عصر يوم الخميس التاسع من شهر محرّم الحرام، وراحوا يلوّحون بالسيوف والرماح، والحسين عليه السلام جالسٌ أمام خيمته لم يلتفت إلى الجموع ولم يكن على علم بقرار الزحف، أقبلت الحوراء زينب تنبّهه وتنادي: **«أمَا تسمع الأصوات قد اقتربت»** ولم تبرح زينب مكانها حتى قَدِمَ العباس بن علي عليه السلام أخو الحسين عليه السلام ينادي:

«يا أخي! أتاكَ القوم».

نهض الحسين عليه السلام، وقد رأى أنْ يخاطب الجموع ويستكشف النوايا فطلب من أخيه العباس أنْ يتحدّث إلى الجيش الأموي ويحاورهم ويستطلع آراءهم..

كان الصلف والغرور قد استولى على تفكير القيادة والسلطة، فهم يتسابقون لحرب الحسين عليه السلام ويتسارعون لسفك الدم الطاهر، ليحظوا بالجاه والسلطة، ويغنموا المال، لذا كان جوابهم: «فلينزل الحسين عليه السلام على حكم الأمير أو نُقاتله».

نقل العباس رأي القيادة العسكرية الأموية إلى الإمام الحسين عليه السلام وأخبره

بصلفهم وعنادهم وإصرارهم على أنْ يخضع الحسين عليه السلام لإرادة السلطة ويبايع يزيد أو يُقتلون.. إذاً لا مناص من المواجهة، والحسين عليه السلام لا عودة ولا رجوع له عن القرار: **«إنَّ مثلي لا يبايع يزيد»** وما زال يُردِّد القول: **«لا أرى الموت إلاّ سعادة والحياة مع الظالمين إلاّ بَرَماً»**. وما زال يحمل شعاره الذي ورثه عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وخاطب الجيش الأموي به في منطقة البيضة قبل أيام:

«أيُّها الناس، إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: مَنْ رأى سلطاناً جائراً، مُسْتَحِلاً لِحُرُم الله، ناكِثاً عهده، مُخالِفاً لسنّة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يُغَيِّرْ عليه بفعلٍ ولا قولٍ كان حقّاً على الله أنْ يُدْخِلَه مُدْخَلَه».

فلم يبقَ أمام الحسين عليه السلام إلاّ أنْ يتأهّب للقاء العدوّ، ويرفع لواء الجهاد والثورة، لذا طلب من العبّاس أن يعود إلى ابن سعد ويستمهله الليلة.

ليلة العاشر من المحرّم، عبادة ووفاء وإخلاص

ينقل ابن طاووس ويقول[1]:

«ولمّا رأى الحسين عليه السلام حرص القوم على تعجيل القتال، قال لأخيه العباس عليه السلام: **إن استطعت أنْ تصرفهم عنّا في هذه الليلة فافعل لعلّنا نصلّي لربّنا في هذه الليلة، فإنّه (سبحانه) يعلم أنّي أُحبُّ الصلاة له وتلاوة كتابه**.. فسألهم العباس ذلك، فقال عمرو بن الحجّاج (من معسكر ابن سعد): والله لو أنّهم من التُرك والديلم وسألونا مثل ذلك لأجبناهم، فكيف وهم من آل محمد.. فأجابوهم إلى ذلك».

وقبل المغيب وقف الحسين عليه السلام في أصحابه وأهل بيته خطيباً ليخبرهم أنَّ القوم لا يريدون قتل غيره وبوسع كلِّ واحدٍ أنْ ينسحب تحت جنح الظلام، وينجو من القتل، فرفض الجميع ذلك وأصرّوا على القتال والفداء[2].

«فجمع الحسين عليه السلام أصحابه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم أقبل عليهم، فقال: **أمّا بعد، فإنّي لا أعلم أصحاباً أصلح منكم ولا أهلَ بيتٍ أبرَّ ولا أفضلَ من أهل بيتي، فجزاكم الله جميعاً عني خيراً، وهذا الليل قد غشيكم فاتّخذوه جَمَلاً وليأخذ كلُّ رجلٍ منكم بيد رجلٍ من أهل بيتي وتفرّقوا في سواد هذا الليل وذروني وهؤلاء القوم، فإنّهم لا يريدون غيري**.. فقال له إخوته وأبناؤه، وأبناء عبد الله بن جعفر ولِمَ نفعل ذلك؟ لنبقى بعدَك، لا أرانا الله ذلك أبداً، وبدأهم بذلك القول، العباس بن عليّ عليه السلام، ثمّ تابعوه..

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام، ابن طاووس ص٥٤.

(٢) الإمام الحسين بن علي الشهيد، دار التوحيد ص١٨٦.

ثمّ نظر إلى بني عقيل، فقال: **حسبكم من القتل بصاحبكم، مسلم، اذهبوا فقد أذِنْتُ لكم**... ورُوِيَ من طريقٍ آخر، فعندها تكلّم إخوتُه وجميعُ أهل بيته، وقالوا: يا ابن رسول الله، فما يقول الناس لنا وماذا نقول لهم، إنَّا تركنا شيخنا وكبيرنا وابن بنت نبيّنا ولم نرمِ معه بسهم، ولم نطعن معه برمح ولم نضرب بسيف، لا والله يا ابن رسول الله لَا نفارقك أبداً، ولكن نقيك بأنفسنا حتى نُقتَل بين يديك ونَرِدَ موردك فقبّح الله العيش بعدك.. ثم قام مسلم بن عوسجة، وقال: نحن نخلّيك هكذا وننصرف عنك؟ وقد أحاط بك العدوّ، لا والله لا يراني الله أبداً وأنا أفعل ذلك حتى أكسر في صدورهم رمحي وأُضاربهم بسيفي ما ثبت قائمُه بيدي، ولو لم يكن لي سلاحٌ أُقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة ولم أفارقك أو أموت معك.. وقام سعيد بن عبد الله الحنفي، فقال: لا والله يا ابن رسول الله لا نخلّيك أبداً حتى يعلم الله أنّا قد حفظنا فيك وصية رسوله محمد ﷺ، ولو علمتُ أنّي أُقتل فيك ثمُ أُحْيَ ثمَ أُذْرَى يُفعل بي سبعين مرّة ما فارقتك حتى ألقى حِمامي دونك، وكيف لا أفعل ذلك، وإنّما هي قتلةٌ واحدة ثمّ أنال الكرامة التي لا انقضاء لها أبداً.. ثمّ قام زهير بن القين، وقال: واللهِ يا ابن رسول الله، لوَدَدْتُ أنّي قُتِلْتُ ثمّ نُشِرْتُ ألف مرّة، وإنّ الله تعالى دفع القتل عنك وعن هؤلاء الفتية من إخوانك وَوُلْدِك وأهل بيتك.

وتكلّم جماعةٌ من أصحابه بنحو ذلك، وقالوا: أنفسنا لكَ الفداء، نقيك بأيدينا ووجوهنا، فإذا نحن قُتلنا بين يديك نكون قد وفينا لربّنا وقضينا ما علينا.. وقيل لأحد أصحاب الإمام الحسين عليه السلام وهو محمد بن بشير الحضرمي في تلك الحال قد أُسِر ابنُك بثغر الرّي، فقال: عند الله احتسبه ونفسي ما كنتُ أُحبّ أنْ يُؤْسَر وأنا أبقى بعده.. فسمع الحسين عليه السلام قوله، فقال: **رحمك الله أنت في حِلٍّ من بيعتي فاعمل في فكاك ابنك**، فقال: أكلتني السباعُ حيّاً إنْ فارقتك..

وقال له جون: أنا في الرخاء آكُلُ قصاعكم وفي الشدّة أخذلكم لا والله لا أفارقكم حتى تختلط دمائي بدمائكم.

وهكذا تكلّم كلُّ الأصحاب بمثل هذا الكلام الذي يدلُّ على عمق الإيمان وروح التضحية والعطاء وشهامة الرجال الأشدّاء في الله:

جادوا بأنفُسِهِمْ عن روحِ سيّدِهِمْ والجودُ بالنَّفْسِ أقصى غايةِ الجودِ

وبات الحسين عليه السلام وأصحابه تلك الليلة ولهم دويٌّ كدويّ النحل ما بين راكعٍ وساجد وقائم وقاعد»[1].

وصار[2] الجميع يُصلِحون سيوفهم ويهيّئون رماحهم، فباتوا تلك الليلة ضيوفاً في أحضان كربلاء.. الحسين عليه السلام يُوَدِّع أهله وأحبابه، ويزور السجّاد وزينب وسكينة والرباب والباقر عليهم السلام ويُوصي آخر وصاياه، ويعهد بآخر عهد له، وقرّر أنْ يسقي شجرة الهدى والإيمان بغزير دمه وفيض معاناته.

ليلةٌ ليلاء، وغَدٌ موحش على آل محمد صلى الله عليه وآله وقد أحاطت بهم الخيل والجيش الذي راح يتكاثف ويتجمّع الألف بعد الألف.. وقد غاب عن آل الرسول وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وأبيهم عليّ عليه السلام، وها هم قد باتوا ليلتهم غرباء يتهدّدهم جيشُ العدوّ بالقتل والأسر والسبي..

انقضت ليلة الهدنة، وطلع ذلك اليوم الرهيب، يوم الجمعة، يوم عاشوراء، يوم الدم والجهاد والشهادة، وطلعت معه رؤوس الأسنّة والرماح والأحقاد وهي مشرعةٌ لتلتهم جسد الحسين عليه السلام..

عبّأ عمر بن سعد رجاله وفرسانه، فوضع على ميمنة الجيش عمرو بن الحجّاج، وعلى ميسرته شمر بن ذي الجوشن، وعلى الخيل عروة بن قيس، وعلى الرّجالة شبث بن ربعي..

نظر الحسينُ عليه السلام إلى الجيش الزاحف، وتأمّل به طويلاً، وهو لم يزل كالطود

---

(١) مقتل الحسين عليه السلام ابن طاووس ص٥٥ـ٥٧.

(٢) الإمام الحسين بن علي الشهيد، دار التوحيد ص١٨٦ بتصرّف.

الشامخ، وقد اطمأنّت نفسه، وهانت دنيا الباطل بعينه، وتصاغر الجيش أمامه.. فلم ترهبه كثرة الجيوش ولم تُوهن عزيمته كثافة الأسنّة، ورفع يدي الضّراعة والابتهال إلى الله سبحانه، وراح يناجي:

«اللّهم أنتَ ثقتي في كلِّ كرب، وأنتَ رجائي في كلِّ شدّة، وأنتَ لي في كلِّ أمرٍ نزل بي ثِقةٌ وعُدّة، كم من همٍّ يضعفُ فيه الفؤاد، وتَقِلُّ فيه الحيلة ويخذُلُ فيه الصديق، ويشمت فيه العدوّ، أنزلتُه بك وشكوتُه إليك، رغبةً مني إليك عمّن سواك، ففرّجتَه عني وكشفتَه، فأنت وليُّ كلِّ نعمةٍ وصاحبُ كلِّ حسنة ومنتهى كلِّ رغبة»[1].

(١) تاريخ الطبري، ج٤، ص٣٢١.

وحصَّن[1] الحسين عليه السلام مخيَّمه وأحاط ظهره بخندق أوقد فيه النار ليمنع المباغتة والالتفاف من الخلف وليحمي النساء والأطفال من العدوان.. نظر الشمر إلى النار وهي تلتهب في الخندق فصاح: «أتعجّلتَ النار قبل يوم القيامة يا حسين» فردَّ الحسين عليه السلام: **«أنتَ أوْلى بها صليّاً»**، وهنا حاول صاحب الحسين عليه السلام مسلم بن عوسجة أنْ يرميه بسهم، فاعترضه الحسين عليه السلام ومنعه قائلاً: **«لا تَرْمِه، فإنّي أكره أنْ أبدأهم»**.

وإتماماً للحجّة على أعدائه من جيش يزيد بن معاوية.. ركب الحسين عليه السلام ناقته وقيل فرسه، فخطب فيهم مُعاتِباً لهم على دعوتهم له وتخاذلهم، كما حدّثهم بما سيقع لهم بعد قتله على أيدي الظالمين من ولاة بني أُميّة، وخصَّ قائد الجيش، وهو عمر بن سعد الذي كان يزيد يمنّيه بجعله والياً على الرّي وجرجان بأنَّ حلمه ذاك لن يتحقّق، وأنَّه سوف يُقتَل ويُرفع رأسه على الرمح.. فقال الحسين عليه السلام[2]:

«تبّاً لكم أيّتها الجماعةُ وتَرَحاً، أفَحِينَ اسْتَصْرختُمونا وَلِهين مُتَحيِّرينَ، فأصْرَخْناكُم مُؤدِّين مُستعدّين، سَلَلْتُم علينا سَيفاً لنا في أيْمانِكُم، وحَشَشْتُم علينا ناراً اقْتَدْحناها على عَدوِّكُم، فأصبحتُم أَلْباً (متضامنين ضدّنا) على أوليائِكُم، ويداً عليهم لأعدائِكُم، بغيرِ عدلٍ أَفشَوْهُ فيكم، ولا أملٍ أصبحَ لكُم فيهم، إلاّ الحرامَ مِنَ الدّنيا أنالوكم، وخسيسَ عَيْشٍ طَمعتُم فيه، من غيرِ حَدَثٍ كانَ منّا، ولا رأيٍ تَفيّلَ

(١) الإمام الحسين بن علي الشهيد، دار التوحيد ص١٨٩.

(٢) مقتل الحسين عليه السلام ابن طاووس ص٥٨ـ٥٩.

(أخطأ) لَنا، فهلاّ ـ لكم الويلات ـ إذ كرهتُمونا تركتمونا؟ فتجهّزْتُموها والسّيفُ لم يُشْهَرْ، والجأشُ طامِنٌ، والرّأيُ لم يُسْتَحْصَفْ، ولكنْ أسرَعْتُم علينا كطيرةِ الدّبا (الجراد الصغير)، وتداعيتُم إليها كتداعي الفَراش، فَقُبحاً لكم، فإنّما أنتم مِن طواغيتِ الأُمّة، وشُذّاذِ الأحْزاب، وَنَبَذَةِ الكتاب، وَنَفَثَةِ الشّيطانِ، وعُصبةِ الآثام، ومُحَرّفي الكتابِ، ومُطْفئي السُّنَنِ، وقَتَلَةِ أولادِ الأنبياء، ومُبيدي عترةِ الأوصياءِ، ومُلْحِقي العُهّارَ بالنّسب[1]، ومؤذي المؤمنين، وصرّاخ أئمّة المستهزئين، الّذين جعلوا القرآن عِضين، وأنتم ابنَ حرب وأشياعَه تعتمدون، أجل واللهِ الخَذْلُ فيكُم معروفٌ، وَشِجَتْ عليهِ عروقُكُم، وتوارَثَتْهُ أُصولُكُم وفروعُكُم ونَبَتْ عليهِ قلوبُكُم، وغَشيتْ بهِ صدورُكُم، فكُنتم أخبثَ شيءٍ سنخاً للناصِبِ، وأَكَلَةً لِلْغاصِب. ألا لعنةُ اللهِ على الناكثينَ، الّذين يَنقضونَ الأيْمَانَ بعدَ توكيدها، وقد جعلتُمُ اللهَ عليكم كَفيلاً، فأنتم والله هم، ألا إنّ الدَّعِيّ ابن الدَّعِيّ[2] قد رَكَزَ بينَ اثنتين: بين السِّلَّةِ والذِّلّة، وهيهات مِنّا الذِّلّة، يأبى اللهُ لنا ذلك ورسولُهُ والمؤمنون، وحُجورٌ طابَت وطَهُرَتْ، وأُنوفٌ حَمِيّةٌ ونفوسٌ أبيّةٌ، مِنْ أنْ نُؤْثِرَ طاعةَ اللّئام، على مصارِعَ الكِرام، ألا وإنّي زاحِفٌ بهذه الأسرة على قِلّةِ العَدَدِ وخُذلانِ النّاصِرِ، ثمّ أنشدَ أبيات فروة بن مسيك المرادي:

فإنْ نَهْزِم فَهزّامونَ قِدْماً ... وإنْ نُهْزَم فَغيرُ مُهزَّمِينا

وما إنْ طِبُّنا جُبْنٌ ولَكِنْ ... مَنايانا ودولةُ آخَرينا

فَقُلْ للشّامتينَ بنا أَفيقوا ... سَيَلْقى الشّامِتونَ كما لَقينا

إذا ما الموتُ رُفِّعَ عَن أُناسٍ ... بِكَلْكَلِهِ أناخَ بآخَرينا»[3]

---

(١) يشير بذلك إلى إلحاق معاوية بن أبي سفيان زياد بن أبيه بنسبه وقوله إنّه أخوه، بعد أنْ شهد شهود بأنّ أبا سفيان قد زنى بأمّه وكانت بغياً من ذوات الرايات، وكان ذلك خلاف ما قاله رسول الله ﷺ من أنّ: «الوَلَد للفراشِ وللعاهِرِ الحَجَر».

(٢) يعني بذلك عبيد الله بن زياد بن أبيه.

(٣) الخوارزمي، مقتل الحسين ج٢، ص٦ و٧، وتاريخ ابن عساكر الحديث ص٦٧٠.

وحاول بعضٌ من أصحاب الحسين عليه السلام، أمثال زهير بن القَيْن وبُرير[1] ابن خضير أنْ يستعملوا لغة العقل والمنطق، وأنْ يشرحا الأحداث ومبرِّرات تحرّك الحسين عليه السلام، فلم يستجب لهما أحد.

وعاد الحسين عليه السلام على ظهر فرسه ووقف أمام الجيش وخاطبهم:

«أمّا بعد، فانسبوني فانظروا مَنْ أنا، ثمّ ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها فانظروا هل يَحلُّ لكم قتلي وانتهاك حُرْمَتي؟ ألَسْتُ ابنَ بنتِ نبيِّكم صلى الله عليه وآله وابنَ وصيّه وابنَ عمّه، وأوّل المؤمنين بالله، والمصدِّق لرسوله بما جاءَ به من عند ربِّه؟ أوَلَيس حمزة سيِّد الشهداء عمّ أبي؟ أوَلَيس جعفر الشهيد الطيّار ذو الجناحين عمِّي؟ أوَلَم يبلغْكُم قولٌ مستفيضٌ فيكم إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لي ولأخي: هذان سيِّدا شبابِ أهلِ الجنّة؟ فإنْ صدّقتموني بما أقول ـ وهو الحقّ ـ والله ما تعمّدت كذباً مذ علمتُ أنّ الله يمقت عليه أهله ويضرّ به مَن اختلقه، وإنْ كذّبتموني فإنّ فيكم مَنْ إنْ سألتُموه عن ذلك أخْبرَكُم، سَلُوا جابرَ بن عبد الله الأنصاري، أو أبا سعيد الخدري، أو سهلَ بن سعد الساعدي، أو زيدَ بن أرقم أو أنسَ بن مالك، يُخبروكم أنّهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله صلى الله عليه وآله لي ولأخي، أفما في هذا حاجز لكم عن سَفْكِ دمي؟

فقال له شمر بن ذي الجوشن: هو ـ أي الشمر ـ يعبد الله على حرفٍ.

فقال حبيب بن مظاهر للشمر: والله، إنِّي لأراك تعبدُ الله على سبعين حرفاً، وأنا أشهد أنّك صادق، ما تدري ما يقولُ، قد طبعَ اللهُ على قلبك.

ثمّ قال لهم الحسين عليه السلام: **فإنْ كنتم في شكّ من هذا القول أوَ تشكّون في أنّي ابنُ بنت نبيِّكم؟ فوالله ما بين المشرق والمغرب ابنُ بنتِ نبيٍّ غيري منكم ولا مِنْ غيركم، أنا ابن بنت نبيِّكم خاصّة، أخبروني: أتطلبوني بقتيلٍ منكم قتلتُهُ؟ أو**

(١) كان برير تابعياً من كبار شيوخ قرّاء القرآن في الكوفة.

مالٍ لكم استهلكتُهُ؟ أو بِقَصاصٍ مِن جُراحة؟»[1].

فلم يستجب له أحد، ثمّ خاطبهم: «أَمَا تَرونَ سَيفَ رسولِ الله ﷺ ولَامَةَ حَربِهِ وعِمامَتَهُ عليَّ، قالوا: نعم. فقال: لِمَ تقاتلوني»[2].

ثمّ قال عليه السلام: «أما والله، لا تَلبثُونَ إلاّ كَرَيْثَما يُركب الفرس، حتى تدورَ بكم دَوْرَ الرَّحى، وتَقْلَقَ بِكُمْ قَلْقَ المِحْوَر، عَهْدٌ عَهِدَه إليَّ أبي عن جدّي رسول الله ﷺ، فأجمعوا أمركم وشُركاءكم ثمّ لا يكُنْ أمركُم عليكُم غُمَّةً، ثمّ اقضوا إليَّ ولاَ تُنْظِرُون، إنّي توكّلتُ على اللهِ ربّي وربّكُم، ما مِنْ دابّةٍ إلاّ هو آخِذٌ بناصِيَتِها إنَّ ربّي على صراطٍ مستقيم»[3].

كل ذلك وعمر بن سعد مصرٌّ على قتال الحسين عليه السلام، والحسين عليه السلام يحاور وينصح ويدفع القوم بالّتي هيَ أحسن، ولمّا لم يُجْدِ نصح، ولم ينفع حوار، قال الحسين عليه السلام لابن سعد:

«أيْ عُمَر أَتَزْعَمُ تَقْتُلني، وَيوَلّيكَ الدّعِيُّ بلادَ الرَّي وجرجان، والله لا تهنأ بذلك، عَهْدٌ مَعْهودُ، فاصنع ما أنتَ صانع، فإنّكَ لا تَفْرَح بَعدي بدُنيا ولا آخِرة، وكأنّي برَأْسِكَ على قَصَبةٍ يَتَراماهُ الصِّبْيانُ بالكوفَةِ وَيَتّخِذُونَهُ غَرَضاً بينهُم»، فَصَرَفَ بِوَجْهِهِ عَنْهُ مُغْضباً»[4].

وأقبل القوم يزحفون نحو الحسين عليه السلام، فلمّا رأى الحرّ بن يزيد وكان قد جعجع به في الطريق أنَّ القوم قد صمَّموا على قتال الحسين عليه السلام قال لعمر بن سعد: أي عمر أتُقاتِل أنتَ هذا الرجل؟ قال عمر: إي والله قتالاً أيْسَرهُ أنْ تسقط

---

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك ج٤، ص٣٢٢ و٣٢٣، وابن الأثير، الكامل في التاريخ ج٤، ص٦١ و٦٢.

(٢) عبد الرزّاق المقرّم، مقتل الحسين عليه السلام ص٣٣٢ و٣٣٤.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٣٥.

(٤) صدق الحسين عليه السلام ولم يربح عمر بن سعد غير الخزي والنار، وقد قتله المختار بن عبيدة الثقفي في الكوفة، ذكر ذلك ابن الأثير في الكامل في التاريخ ج٤، ص٢٤١.

الرؤوس وتطيح الأيدي قال: أفَما لكم فيما عرضه عليكم رضىً؟ قال عمر: أما لو كان الأمر إليّ لفعلتُ ولكنّ أميرك قد أبى.

فعاد الحرّ إلى مكانه وإلى جانبه صاحبه قرّة بن قيس، فقال له: يا قرّة هل سقيت فرسك اليوم؟ قال: لا قال: فما تريد أنْ تسقيه؟ قال: فظننت أنّه يريد أن يتنحّى فلا يشهد القتال ويكره أنْ أراه، قلت: لم أسقِه وأنا منطلق فأسقيه، فاعتزل ذلك المكان، فوالله لو أطلعني على الذي يريد لخرجت معه إلى الحسين عليه السلام. وأخذ الحرّ يدنو من الحسين قليلاً قليلاً.

وفي رواية الطبري ما قال له المهاجر بن أوس: يا حرّ أتريد أنْ تحمل؟ فسكت وأخذته الرعدة فارتاب مِنْ حاله وقال له: لو قيل لي مَنْ أشجع أهل الكوفة لما عَدَوْتُك فما هذا الذي أراه منك؟ فقال الحرّ: إنّي أُخيِّر نفسي بين الجنّة والنار، والله لا أختار على الجنّة شيئاً ولو أُحْرِقْت.

ثمّ ضَرَبَ فرسه فلَحِقَ بالحسين عليه السلام فقال له: جعلت فداك يا ابن رسول الله أنا صاحبك الذي حبستك عن الرجوع وسايرتك في الطريق وجعجعت بك في هذا المكان وما ظننتُ أنّ القوم يردّون عليك ما عرضته عليهم ولا يبلغون منك هذه المنزلة.. وإنّي تائبٌ إلى الله تعالى ممّا صنعتُ أفترى لي من توبة؟ فقال له الحسين عليه السلام: **نعم يتوب الله عليك فانزِل**، قال: فأنا لكَ فارساً خير مني راجلاً أُقاتلهم على فرسي ساعة، فقال له الحسين عليه السلام: **فاصنع رحمك الله ما بدا لك** وأنشأ رجل من أصحاب الحسين يقول:

لَنِعْمَ الحرُّ حُرُّ بني رياحِ ... وحرٌّ عندَ مختلفِ الرِّماحِ

وَنِعْمَ الحرُّ إذ نادى حسينٌ ... وجادَ بنفسِهِ عندَ الصَّبَاحِ

ونادى عمر بن سعد وقد وضع سهمه في كبد قوسه ورمى بها نحو معسكر الحسين وقال: اشهدوا لي عند الأمير أنّي أوّل مَنْ رمى، ثمّ

رمى الناس فقال الحسين عليه السلام: «**قوموا رحمكم الله هذه رُسُل القوم إليكم**».

وحمل عمرو بن الحجّاج على ميمنة أصحاب الحسين عليه السلام فيمن كان معه فرماهم أصحاب الحسين عليه السلام بالنبل فتراجعوا، فما انجلت الغبرة إلاّ عن خمسين صريعاً، وجاء رجل من بني تميم يُقال له عبد الله بن حوزة، حمل على معسكر الحسين فقالوا له: إلى أين؟ قال إنّي أُقدم على ربٍ رحيم ـ لعمري كيف يرحم الله تعالى مَنْ يحمل على ذرّية نبيّه صلى الله عليه وآله ـ فقال الحسين عليه السلام: **مَنْ هذا؟** قالوا: ابن حوزة، قال عليه السلام: «**اللّهم حزه إلى النار**» وما أسرع ما استجاب الله دعاءه، اضطربت به الفرس في جدول فوقع وتعلّقت رجله بالركاب وارتفعت الأخرى فضربه عليها مسلم بن عوسجة فطارت وعدا به فرسُه يضرب به كلّ حجر وشجر حتّى مات وعجّل الله بروحه إلى النار. ونشب القتال بينهم وحمل الحرّ بن يزيد على أصحاب عمر بن سعد وهو يرتجز بقول عنترة:

ما زلتُ أرميهم بِغُرَّةِ وجهِهِ ولَبَانِهِ حتّى تَسَرْبَلَ بالدَّمِ

فصاح عمرو بن الحجّاج بالناس: يا حمقى أتدرون مَنْ تقاتلون؟ تقاتلون فرسان أهل المصر وقوماً مستميتين لا يبرز إليهم منكم أحد إلاّ قتلوه، والله لو لم ترموهم إلاّ بالحجارة لقتلتموهم. فقال عمر بن سعد: صدقت الرأي ما رأيته، فأرسل في الناس أنْ لا يبارزوا أصحاب الحسين عليه السلام.

ثمّ حمل ابن الحجّاج على أصحاب الحسين عليه السلام فاضطربوا ساعة وسقط في هذه الجولة مسلم بن عوسجة شهيداً رحمه الله، وفي بعض المقاتل سقط وبه رمق فمشى إليه الحسين عليه السلام ومعه حبيب بن مظاهر فقال له الحسين عليه السلام: «**رحمك الله يا مسلم**» وتلا قوله تعالى: ﴿ **فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ**

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣] ودنا منه حبيب وقال: عزَّ عليَّ مصرعك يا مسلم أبْشِر بالجنّة. فقال بصوتٍ ضعيف: بشَّرك الله بخير، قال: لو لم أعلم أنّي في الأثر لأحببتُ أنْ توصي إليّ بما أهمَّك، قال مسلم: أوصيك بهذا، ـ وأشار إلى الحسين عليه السلام ـ أنْ تموت دونه قال: أفعل وربّ الكعبة.

وقاتل أصحاب الحسين بن عليّ عليه السلام أشدّ القتال حتّى انتصف النهار. فلمّا رأى الحصين بن النمير صَبْرَ الحسين وأصحابه أمَرَ أصحابه وكانوا خمسماية نبّال أنْ يرشقوا الحسين عليه السلام وأصحابه، فعقروا خيولهم وجرحوا الرجال واشتدّ القتال، وجاء شمر في أصحابه فحمل عليهم زهير بن القَيْن وعشرة من أصحابه وكشفهم (عن الخيم) وعطف عليهم شمر فقتل منهم وردّ الباقين إلى مواضعهم، وأنشأ زهير يقول:

اليومَ نلقى جَدَّكَ النَّبيَّا وَحَسَناً والمرتضى عَلِيَّا
وذا الجَنَاحينِ الفتى الكَمِيّا

واشتدّ القتال بين القوم إلى أنْ زالت الشمس.

وجاء في مقتل أبي مخنف ـ أنّه لمّا رأى أبو ثمامة عمرو بن عبد الله الصائدي ذلك، قال للحسين عليه السلام: يا أبا عبد الله نفسي لكَ الفِدا، إنّي أرى هؤلاء القوم قد اقتربوا منك، ولا واللهِ لا تُقتَل حتّى أُقتَلَ دونك وأُحبّ أنْ ألقى ربّي وقد صلّيت هذه الصلاة التي دَنا وقتها معك، قال: فرفع الحسين عليه السلام رأسه ثمّ قال: **«ذكرتَ الصلاة جعلك الله من المصلّين نعم هذا أوّل وقتها، سلوهم أنْ يكفّوا عنّا حتى نصلّي»**. فقال له الحصين بن تميم: إنّها لا تُقبَل، فقال له حبيب بن مظاهر: زعمتَ أنّها لا تُقبَل من آل الرسول وتُقبَل منكَ يا حمار، فحمل عليهم حصين وخَرَج إليه حبيب فضرب وجه فرسه بالسيف فشبّ ووقع عنه وحمله أصحابه

فاستنقذوه وأخذ حبيب بن مظاهر يقول:

أنـا حبيبٌ وأبـي مُظَاهِرْ   فـارسُ هيجاءَ وحـربٍ تَسْعَرْ
أَنـتـمْ أَعَـدُّ عُـدّةً وأكْـثَـرْ   ونحن أوفـى منكُمُ وأَصْبَـرْ
ونحن أعلى حُجةً وأظْهَـرْ   حـقّاً وأتـقـى منكُمُ وأعْـذَرْ

وقاتل قتالاً شديداً فطعنه رجل من تميم فوقع، وأراد القيام فضرب الحصين بن تميم رأسه بالسيف، ونزل إليه فحزَّ رأسه فقال له الحُصَيْن: أنا شريك في قتله. وذلك طلباً للجائزة لأنّ حبيباً شيخ من شيوخ الكوفة.

قال أبو مخنف: مقتل حبيب هدَّ الحسين، وقال أحتسب نفسي وحماة أصحابي عند الله وقال الحرّ مرتجزاً:

آلَـيـتُ لا أقـتـلُ حـتّـى أُقتلا   ولـن أُصـابَ اليومَ إلاّ مُقْبِلا
أَضربُهُمْ بالسّيفِ ضَرْباً معضلا   لا نـاكـلاً عنهم ولا مُهَلِّلا

فقاتل هو وزهير بن القَيْن قتالاً شديداً، فكان إذا شدّ أحدهما، شدّ الآخر حتّى يخلِّصه، فحملت رجال على الحرّ فقتلته وقُتِلَ أبو ثمامة الصائدي، ثمّ بعد هذه الجولة صلّى الحسين عليه السلام الظهر بأصحابه صلاة الخوف وتقدّم أمام الحسين سعيد بن عبد الله الحنفي يقيه النبال، فلما انتهت الصلاة سقط على الأرض، وهو يقول كما في مقتل العوالم: اللهم العنهم لعن عاد وثمود وأبلغ نبيّك منّي السلام وأبلغ ما لقيت من ألَم الجراح فإنّي أردت بذلك ثوابك في نصرة ذرّية نبيّك، والتفت إلى الحسين قائلاً: أَوَفَيْتُ يا بن رسول الله، قال: «**نعم أنتَ أمامي في الجنّة**».

وجاء في التواريخ أنّه لمّا فرغ الحسين عليه السلام من الصلاة قال لأصحابه: «**يا كِرام هذه الجنّة قد فُتِحتْ أبوابها واتّصلت أنهارها وأيْنَعَتْ ثمارها وهذا رسول الله والشهداء الذين قُتلوا في سبيل الله يتوقّعون قدومكم ويستبشرون بكم**

فَحَاموا عن دِين الله ودِين نبيّه» فقالوا: نفوسنا لنفسك الفِداء ودماؤنا لدمك الوقا، فوالله لن يصلوا إليك ولا إلى حرمك وفينا عِرق.

وتقدّم من أصحابه مَنْ يعظ القوم ويُخَوّفهم عذاب الله تعالى ويُحذّرهم من قتل ابن بنت رسول الله ﷺ ومنهم حنظلة بن سعد الشجاص وشوذب مولى شاكر، وتقدّم عابس بن أبي شبيب الشاكري فسلّم على الحسين عليه السلام مُوَدِّعاً ثمّ برَزَ فقاتل حتّى قُتِلَ رحمه الله.

ثمّ بَرزَ زهير بن القَيْن وهو يقول:

أنـا زهـيـرٌ وأنـا ابـن الـقَـيْـنِ أذودُهُـمْ بالسَّيفِ عَـنْ حُسَينِ

وشدَّ عليه عبد الله الشعبي ومهاجر بن أوس فقتلاه رحمه الله كما جاء في مقتل أبي مخنف. ثمّ برَزَ نافع بن هلال الجملي وجعل يرمي بالنبل وهو يقول:

أنـا بـنُ هـلال الجملي وأنـا على دِيـنِ علي (وديـنُـهُ ديـنُ النبيّ)

وقتل منهم عدداً، فحمل عليه القوم وضربوه حتّى كُسِرَت عضداه، فأُخِذَ أسيراً إلى الشمر، فحمله حتّى أتوا به ابن سعد، قال له: ويلك يا نافع ما حملك على ما صنعت بنفسك؟ قال نافع: إنَّ ربّي يعلم ما أردتُ؟ إلى أنْ قال: ولو بقيت منّي عضدي وساعدي ما أسرتموني فقال شمر لِعمر: اقتله، قال: أنتَ جئت به فإنْ شئت فاقتله، فأخرج شمراً سيفه فقال له نافع: أمَا والله لو كنتَ من المسلمين لَعَظُمَ عليك أنْ تلقى الله بدمائنا، فالحمد لله الذي جعل منايانا على يَدَيّ شِرار خلقه، فقتله رحمه الله.

فأمَّا مَنْ بقي من أصحاب الحسين عليه السلام فإنَّه استبسل في الدفاع عن الحسين عليه السلام وأخذ الرجل منهم يبرز والرجلان، فبَرَزَ الغفاريّان عبد الله وعبد الرحمن أبناء عزرة الغفّاري بعد أنْ قالا للحسين عليه السلام: أَحْبَبْنا أنْ نُقتَل بين يديك نمنعك وندفع عنك قال عليه السلام: «مرحباً بكما» وأخذا يُقاتِلان، ويرتجز أحدهما.

قد عَلِمَتْ حَقّاً بنو غفّارِ وخِنْدفٍ بعدَ بني نزارِ
لتضربنَّ معشرَ الفُجّار بكلّ عَضْبٍ صارمٍ بَتّارِ

وقاتلا حتّى استُشهِدا (رحمهما الله)

ثمّ برزَ الجابريان سيف بن الحارث بن سريع، ومالك بن عبد ابن سريع، وهما ابنا عم وأخوان لأم، فأتيا حسيناً عليه السلام باكيين فقال عليه السلام: «**ما يبكيكما فوالله إنّي لأرجو أنْ تكونا عن ساعة قريرَي العين**»، قالا: جُعلنا فداك، لا والله ما على أنفسنا نبكي، ولكن نبكي عليك نراك قد أُحيطَ بك، ولا نقدر أنْ نمنعك. فقال الحسين عليه السلام: «**جزاكما الله بمواساتكما بأنفسكما، أحْسَنَ جزاء المُتّقين**». وبرزا فقاتلا حتّى قُتِلا (رحمهما الله).

ثمّ برزَ برير بن خضير وحنظلة الشبامي وجون مولى أبي ذرّ، فقال له الحسين عليه السلام: «**يا جون إنّما تَبِعْتَنَا لطلب العافية فأنتَ في حِلٍّ منّي**»، فقال أنا في الرخاء ألحسُ قصاعكم وفي الشدّة أخذلكم، إنّ لوني لأسود فتنفّس عليّ بالجنة ليطيب ريحي، لا والله لا أُفارقكم حتى يختلطَ دمي الأسود بدمائكم، فأذِنَ له الحسين عليه السلام ولمّا استُشْهد جاءه الحسين عليه السلام واقفاً عليه قائلاً «**اللّهم بَيِّض وجهه وطَيِّبْ ريحَه واحْشُرْهُ مع محمّد وآل محمّد وعَرِّفْ بينه وبين آل محمّد**» فكانَ مَنْ يمرّ بالمعركة يشمّ منه رائحة طيّبة أزكى من المسك رحمه الله.

ثمّ برزَ أنس الكاهلي وكان شيخاً كبيراً وصحابيّاً، رأى النبيّ صلى الله عليه وآله وسمع حديثه وشهِدَ بدراً وحُنيناً، فاستأذَنَ الحسينَ عليه السلام وبرز وهو يشدّ وسطه بعمامة رافِعاً حاجبيه بعصابة، لمّا نظر إليه الحسين عليه السلام بهذه الهيئة بكى وقال: «**شكر الله لكَ يا شيخ**» فَقُتِلَ رحمه الله.

وبرزَ عمر بن جنادة الأنصاري بعد أنْ قُتِلَ أبوه، وهو ابن إحدى عشرة سنة يستأذن الحسين عليه السلام فقال عليه السلام: «**هذا غلام قُتِل أبوه ولعلّ أُمّه تكره ذلك**»

فقال الغلام: إنّ أُمّي هي التي أمرتني، فأذِنَ له فما أسرع أنْ قُتِلَ بين يديّ الحسين عليه السلام ورُمِيَ برأسه إلى جهة المخيَّم، فأخذت أمه رأسه ومسحت الدم عنه وضربت به رجلاً من الأعداء وأخذت عمود خيمة تريد القتال فردَّها الحسين عليه السلام وجزاها خيراً.

ولمّا أُثْخِنَ سويد بن عمر بن أبي مطاع بالجراح ظنّ القوم أنّه قُتِل، فلما قُتِل الحسين عليه السلام وسمع القوم يقولون قُتِل الحسين، أخرج سكيناً كانت معه وقاتل، فتعاطفوا عليه وقتلوه وكان آخر مَنْ قُتِلَ من أنصار الحسين عليه السلام.

فَقَامَتْ لنصر الدّينِ فرسانُ غالبٍ ... عليها من البأسِ الشَّديدِ وِسامُ
إلى أنْ ثَوَوا في التُّرْبِ بينَ مُبَضَّعٍ ... ومنعَفِرٍ منهُ تَطايَرَ هامُ
فجاءَهُمُ سبْطُ النبيِّ مُنادِياً ... أأحبابَنَا هُبّوا فالمنامُ حَرَامُ
رضيتمْ بأنْ أبقى وحيداً وأنتُمُ ... ضحايا على وجهِ الصَّعيدِ نِيامُ

لمّا لم يبقَ مع الحسين عليه السلام إلاّ أهل بيته وهم وُلْد عليّ عليه السلام ووُلد جعفر ووُلد الحسن ووُلد الحسين عليهم السلام وبعض وُلد عقيل اجتمعوا وجعل بعضهم يودِّع الآخر، وعزموا على القتال ببأسٍ شديد ونفوس أبيّة، وأوّل مَنْ تقدَّم منهم علي بن الحسين الأكبر وعمره سبعٌ وعشرون سنة، وكان أشبه الناس برسول الله صلى الله عليه وآله خَلْقاً وخُلُقاً.

وَرِثَ الصّفاتِ الغُرَّ وَهْيَ تُراثُهُ ... مِنْ كُلِّ غِطريفٍ وَشَهْمٍ أَصْيَدِ
في بأسِ حمزةَ في شجاعةِ حيدرٍ ... بإبا الحسينِ وفي مَهَابةِ أَحْمَدِ
وتراهُ في خُلُقٍ وطيبِ خلائقٍ ... وبليغِ نُطْقٍ كالنبيِّ مُحَمَّدِ

تقدَّم لوداع أبيه وأخذ الإذن منه، وإذا بالحسين نَظَرَ إليه نظرة آيسٍ منه، «**بُنَيّ علي إليَّ إليَّ أودّعك وتودّعني أشمّك وتشمّني**» ثم سالت دموعه على خديه ورفع يده الشريفة إلى السماء قائلاً:

«اللّهم اشهَدْ على هؤلاء القوم فقد برزَ إليهم أشبه الناس خَلْقاً وخُلُقاً ومَنْطِقاً برسولك محمد وكنّا إذا اشتقنا إلى رسولك نظرنا في وجه الغلام، اللّهم امنعهم بركات الأرض وفرّقهم تفريقاً.. فإنّهم دعونا لينصرونا فعدوا علينا يقاتلونا».

وصاح: «يا بن سعد قطع الله رَحِمَك كما قَطَعْتَ رحِمي ولم تحفظ قرابتي من رسول الله ﷺ وسلّط الله عليك مَنْ يذبحك على فراشك»، ثمّ برزَ عليّ الأكبر وهو يقول:

أنا عليُّ بنُ الحسينِ بنِ علي نحنُ وبيتِ اللّهِ أوْلَى بالنَّبي
تَاللهِ لا يحكُمُ فينا ابنُ الدَّعِي أضْرِبُ بالسَّيفِ أحامي عن أبي
ضَرْبَ غُلامٍ هاشميٍّ عَلَوي

جاء في مقتل أبي مخنف: فنظر إليه مُرّة بن منقذ العبدي فقال: عليّ آثام العرب إنْ لم أثكل به أمّه إنْ مرّ علي، وبينما هو يشدّ على الناس حتّى مرّ به فطعنه بالرمح فصرعه، اعتوره الناس فقطّعوه بأسيافهم.

وجاءه الحسين عليه السلام مُسْرِعاً وهو يقول: «قَتَلَ الله قوماً قتلوك يا بُنَيّ ما أجرأهم على الرحمن وعلى انتهاك حُرْمَة الرسول، على الدنيا بعدك العفا».

ثمّ قال أبو مخنف عمّن روى: وكأنّي أنظر خلفه امرأة تُنادي: واأخاه وابن أُخيّاه، فسألتُ عنها فقالوا هذه زينب ابنة فاطمة ابنة رسول الله ﷺ فجاءت حتّى أكَبَّتْ عليه، فجاءها الحسين عليه السلام وردّها إلى المخيّم.

يا كوكباً ما كان أقصرَ عَمْرَهُ وكذا تكون كواكبُ الأسحارِ
جاورتُ أعدائي وجاوَرَ ربَّهُ شتّانَ بين جوارهِ وجواري

ثمّ نادى الحسين بأهل بيته: «إحملوا أخاكم» فحملوه من مصرعه حتّى وضعوه في خيمة.

ثمّ خرج عبد الله بن مسلم بن عقيل وجاءه سهم على جبهته فوضع كفَّه عليها حتّى سقط وهو لا يتحرّك واحتوشه القوم حتّى قضى نحبه، فصاح الحسين عليه السلام: **«صبراً على الموت يا بني عمومتي لا رأيتم هواناً بعد هذا اليوم»**، فجعلوا يُقاتلون فوقَعَ فيهم قتيلاً عون بن عبد الله بن جعفر، وأمّه العقيلة زينب عليها السلام، وأخوه محمد، وأمّه الخوصاء، وعبد الرحمن بن عقيل، وأخوه جعفر بن عقيل، ومحمد بن مسلم بن عقيل، ومحمد بن أمير المؤمنين عليه السلام وعبد الله الأكبر بن عقيل وكان آخرهم محمد بن أبي سعيد بن عقيل، ثمّ خرج عبد الله الأكبر ابن الإمام الحسن عليه السلام على رواية وقاتل حتّى قُتِلَ، ثمّ أخوه الحسن المثنّى الذي أُثْخِنَ بالجراح فاستنقذه أخواله من بني فزارة وحملوه إلى مضاربهم وطبّبوه من جراحاته، ثم جاء القاسم بن الحسن عليه السلام إلى عمّه الحسين يريد القتال وعافت نفسه الدنيا فلم يملك الحسين عليه السلام نفسه، فاعتنق ابن أخيه وبكى، وهو يقول **«يا ابن أخي أنتَ بقيّة وُلْد أخي الحسن»** فلم يزل القاسم يتوسّل إليه حتى أَذِنَ له.

يقول حميد بن مسلم خرج إلينا غلام كان وجهه شقّة قمر، في يده سيف وعليه قميص، فبرَزَ وهو يقول:

إنْ تنكروني فأنا نَجْلُ الحَسَنْ سِبْطُ النبيِّ المصطفى والمؤتَمَنْ
هذا حسينٌ كالأسيرِ المُرْتَهَنْ بين أُناسٍ لا سُقُوا صَوْبَ المُزُنْ

فقاتل قتال الأبطال غير آبه بجموع القوم: فقال عمر بن سعيد بن النفيل الأزدي: والله لأشدَّنَ عليه، فقال له حميد: سبحان الله يكفيك هؤلاء القوم، فقال: والله لأشدَّنَ عليه، وشدّ عليه وضرب رأسه بالسيف فوقع الغلام لوجهه وهو يقول: يا عمّاه. وجاءه الحسين مسرعاً وكشف القوم عنه وضرب قاتله بالسيف وانْجَلَت الغبرة والحسين عليه السلام على رأس الغلام وهو يفحص برجليه والحسين يقول: **«بُنَيّ بُعْداً لقوم قتلوك ومَنْ خصمهم يوم القيامة فيك جدُّك، عزّ واللهِ على عمّك أنْ تدعوه فلا يجيبك أو يجيبك فلا ينفعك صرتُ، واللهِ كثُر واترُه وقلّ ناصره»**..

يقول أبو مخنف عمّن روى، ثمّ حمله الحسين ووضع صدره على صدره، وجاء حتّى ألقاه مع ابنه علي الأكبر والشهداء من أهل بيته.

إنْ يَبْكِهِ عمُّهُ حزناً لمصرَعِهِ فما بكى قَـمَـرٌ إلاّ على قَمَرِ

يا ساعدَ اللهُ قلبَ السّبْطِ يغمرُهُ فرداً ولم يَبْلُغِ الحُلْمَ في العُمُرِ

ولمّا رأى العبّاس عليه السلام كثرة القتلى في أهل بيته قال لإخوته الثلاثة مِنْ أمّه (أمّ البنين) وأبيه أمير المؤمنين عليه السلام وهم عبد الله وعثمان وجعفر: **«تقدَّموا يا بني أُمّي حتّى أراكم قد نصحتم لله ولرسوله»**، فقاتَلوا بين يدي أبي الفضل والحسين عليه السلام حتّى قُتلوا رضوان الله عليهم.

ثمّ إنّ العباس عليه السلام بعد مقتل إخوته وعموم أهل بيت الحسين وأصحابه جاء إلى أخيه الحسين عليه السلام يستأذن الخروج... وما زال العباس يكرِّر طلب الرخصة، فقال له الحسين عليه السلام: **«إذاً اطلب لهؤلاء الأطفال شيئاً من الماء»**.

توجَّه العباس لملء القربة وأخذ يَعِظ القوم ويحذّرهم غضب الجبّار، وطلب شيئاً من الماء للأطفال، فأجابه الشمر: يا بن أبي تراب لو كان وجه الأرض كلّه ماء وهو تحت أيدينا لما سقيناكم منه قطرة، إلاّ أنْ تدخلوا في بيعة يزيد. فرجع العبّاس وأخبر الحسين عليه السلام بمقالته وسمع صراخ الأطفال ينادون: العطشَ العطشَ، فركبَ جواده وقصد الفرات وأحاط الجُنْد به من كلِّ جانب، ورموه بالنبال فلم يعْبَأ بجمعهم وقاتلهم حتّى قضى، وفي رواية أخرى كَمِنَ له زيد بن الرقاد الجهني وراء نخلة عاونه ابن الطفيل فضربه على يمينه فبرأها فقال عليه السلام:

واللـهِ إنْ قَـطَـعْـتُـمُ يميني إنّـي أُحـامـي أبـداً عَـنْ ديني

وَعَـنْ إمـامٍ صـادقِ اليقينِ نجلِ النبيِّ الـطّـاهِـرِ الأمينِ

وكَمِنَ له حكيم ابن الطفيل، فلمّا مرّ به ضربه على شماله فبَرَأها، وتكاثروا عليه، وأَتَتْهُ السهام من كلِّ جانب، فأصاب القِرْبةَ سهمٌ وأُريقَ ماؤها، وسهمٌ

أصاب صدره، وضربه رجل بعمود على رأسه فَشَجّ هامته.

وهـوى بِجَنْبِ العلقميِّ فليتَهُ للشّاربينَ بِهِ يُـدافُ به العَلْقمُ

مُنادياً: **عليكَ منّي السلام أخي أبا عبد الله**، فجاءه الحسين عليه السلام مسرعاً، ولكن بأيِّ حالٍ كان عليه وبأيّ قلبٍ يلاقيه، صاحَ: **الآن انكسر ظهري، الآن قَلَّتْ حيلَتي، الآن شَمِتَ بي عدُوّي**.

وَبَـانَ الانـكـسـارُ فـي جبينِهِ فاندكّت الجبالُ مـن حَنينِهِ

وَكيفَ لا وهْـوَ مجالُ بهجَتِهْ وفـي مُـحَـيَّـاهُ سـرورُ مُهْجَتِهْ

كَـافِـلُ أهـلِـهِ وساقي صِبْيَتِهْ وحـامـلُ الـلِّـوا بعالي هِمَّتِهْ

ثمّ إنّ الحسين عليه السلام تركه في مكانه الذي دُفن فيه، ورجع إلى المخيّم حزيناً باكياً، قال الراوي: تَلَقّتْهُ سكينة وزينب تسألانه عن العباس فلم يجبهما، وذهب إلى خيمة العباس وأسقط عمودها، فعلمت زينب بمقتله، صاحَتْ: **واأخاه واعبّاساه واضَيْعَتنا بعدك يا أبا الفضل**.

نـادى وقد ملأ البوادي صيحةً صُـمُّ الصخورِ لهولِهَا تَتَأَلَّمُ

أَأُخَـيَّ مَنْ يحمي بناتِ محمّدٍ إنْ صِرْنَ يسترحِمْنَ مَنْ لا يرحَمُ

هذا حسامك مَنْ يُذِلُّ به العِدَى ولـوَاكَ هـذا مَـنْ بِـهِ يَـتَـقَـدَّمُ

هَوَّنْتَ يا بنَ أبي مصارعَ فتيتي والجُرْحُ يُسكِنُهُ الذي هُوَ آلَمُ

وبقي الحسين عليه السلام وحيداً فريداً لا ناصِرَ من أصحابه ولا من أهل بيته وأولاده، إلاّ زين العابدين الذي كان عليلاً فأتاه الحسين مُوَدِّعاً فقال: **يا عمّه سَنِّديني** ـ وكانت عنده عمّته زينب ـ وسأله عن حاله فأجاب حامِداً، ثمّ سأله عن الأصحاب والأحباب، والحسين يقول: **عظّم الله لكَ الأجر بفلان وفلان**، عندها صاح زين العابدين: **عمّه زينب إليّ بالعصا والسيف**. فصاح الحسين عليه السلام بأخته: **إحبسيه لئلا تخلو منّا الأرض**.

ثمّ إنّ الحسين عليه السلام أخذ يودّع أهل بيته وجاؤوا إليه بالطفل الرضيع فأجلسه في حجره، بينما هو في حِجر الحسين، وإذا بسهم أتاه من حرملة، فذبحه فتلقّى الحسين دمه، فلّما امتلأ صبّه في الأرض ثمّ قال: «**ربِّ إنْ تك حبست عنّا النصر من السماء فاجعل ذلك لما هو خير وانتقم لنا من هؤلاء الظالمين**». وفي رواية حمله وتوجّه به إلى القوم يطلب له شربة من الماء فتنازَع القوم بينهم، وقالوا، إنْ كان ذنب للكبار فما ذنب الصغار؟ أُسقوه شربة ماء. فنادى ابن سعد بحرملة: إقطع نزاع القوم، وضَرَبَه بالسهم فذبحه بين يدي والده الحسين عليه السلام، فقال عليه السلام: «**هَوَّنَ ما نَزَلَ بي أنّه بعين الله، فلا يكن أهون عليك من فصيل ناقة صالح**».

ثمّ ودَّع الحسين عليه السلام أهل بيته وتقدَّم نحو القوم مُصَلِّتاً سيفه، ودعا الناس للبِراز، فلم يزل يقتل كلّ مَنْ برَزَ إليه، وعلى رواية حَمَلَ على ميمنة القوم وهو يقول:

الموتُ أولى من ركوبِ العارِ ... والعارُ أولى من دخولِ النّارِ

ثمّ حَمَلَ على الميسرة وهو يرتجز:

أنا الحسينُ بنُ علي ... آليتُ ألّا أنثني

أحمي عيالاتِ أبي ... أمضي على دِينِ النَّبي

قال عبد الله بن عمّار بن يغوث: ما رأيتُ مكثوراً قطّ قُتِلَ وِلْدُه وأهل بيته وصحبه أربط جأشاً ولا أمضى جناناً ولا أَجْرَأ مَقْدَماً من الحسين، ولقد كانت الرجال تكشف بين يديه إذا شدّ فيها، ولم يثبت له أحدٌ فتفرّ أمامه كما تفرُّ الغنم إذا شدَّ عليها الذئب. فصاح عمر بن سعد ويلكم هذا ابن الأنزع البطين، هذا ابن قتّال العرب، احملوا عليه من كلّ جانب، فأَتَتْه النبال من كلّ جانب، وحال الرجال بينه وبين رحله فقال الحسين عليه السلام: «**ويلكم إنْ لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون المَعاد فكونوا أحراراً في دُنياكم وارجعوا إلى أحسابكم وأنسابكم إنْ كنتم عُرُباً**

كما تزعمون، وامنعوا رحلي وأهلي من طغاتكم وجهّالكم» فقال شمر: ما تقول يا ابن فاطمة، قال عليه السلام: **«أنا الذي أُقاتِلكم والنساء ليس عليهنّ جناح فامنعوا عتاتكم من التعرّض لِحُرَمي ما دمتُ حيّاً»** فقال الشمر: لكَ ذلك.

وقصده القوم واشتدّ القتال واشتدّ به العطش، فحمل نحو الفرات يشرب، فناداه رجل يا حسين أَتَلْتَذّ بالماء وقد هُتِكَتْ حريمك، فرمى الماء وعاد مسرعاً قاصِداً الخيام.

ثمّ إنّ الحسين عليه السلام ودّع عياله ثانياً، وأَحَطْنَ به من كلّ جانب يصرخن ويبكين فأمرهُنَّ بالصبر وقال: **«استعدوا للبلاء واعلموا أنّ الله حاميكم وحافظكم وسينجيكم من شرّ الأعداء، ويجعل عاقبة أمرِكُم إلى خير، ويُعَذِّب عدوّكم بأنواع العذاب، ويُعَوِّضكم عن هذه البَلِيّة بأنواع الكرامة، فلا تشكوا ولا تقولوا بألسنتكم ما يُنْقِص مِنْ قَدْرِكُم»**.

يقول الراوي والتَفَتَ الحسين عليه السلام إلى ابنته سكينة وهي منحازة عن النساء باكية نادِبة فوقف عندها مُصَبِّراً ومُسَلِّياً..

هذا الــوَدَاعُ عزيزتي والملتقى ... يومَ القيامةِ عند حوضِ الكوثَرِ

فدعي البكاء وللأسارِ تهيّئي ... واسْتَشْعِري الصبر الجميلَ وبادري

فقال عمر بن سعد: ويحكم اهجموا عليه ما دام مشغولاً بنفسه وحرمه، فوالله إنْ فرغ لكم لا تمتاز ميمنتكم عن ميسرتكم، فحملوا عليه يرمونه بالنبال حتى تخالطت السهام بين أطناب الخيام، وشكّ سهم بعض أُزُر النساء فأُرْعِبْنَ ودُهِشْنَ وصُحْنَ ودخلن الخيمة ينظرن إلى الحسين عليه السلام فحمل الحسين عليه السلام عليهم كالليث الغضبان لا يلحق أحداً إلاّ بعجه بسيفه فقتله، ويتقي السهام بصدره ثم يرجع إلى مركزه وهو يُكْثِر من قول: **«لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم»**، وناداه شمر لا تَذوقَ الماء حتى تَرِدَ النار، وقال له آخر: ألاَ ترى الفرات كأنّه

بطـون الحيّـات فلا تشـرب منه حتى تموت عطشاً. فقال الحسين عليه السلام: «**اللّهم أَمِتْهُ عطشاً**».

ورماه أبو الحتوف الجُعْفي بسهم في جبهته فسالَت الدماء على وجهه عليه السلام فقال: «**اللّهم إنّك ترى ما أنا فيه من عبادك**».. وصاح بصوتٍ عالٍ: «**يا أُمَّةَ السوء بئسما خلَّفتُم نبيّكم في عترته، أمّا إنّكم لا تقتلون رجلاً بعدي فتهابون قتله، بل يهون عليكم ذلك عند قتلكم أياي، وأيم الله إنّي لأرجوه أنْ يُكرمني الله بالشهادة، ثمّ ينتقم لي منكم من حيث لا تشعرون**».

فقال الحُصَين: وبماذا ينتقم لكَ منّا يا ابن فاطمة؟ قال عليه السلام: «**يُلقي بأسكم بينكم ويسفك دماءكم ثمّ يصبّ عليكم العذاب صبّاً**».

ولما ضَعُفَ عليه السلام عن القتال وقف ليستريح فرماه رجل بحجر على جبهته وسال الدم على وجهه، فأخذ الثوب يمسح الدم عن عينيه، ورماه آخر بسهم وقع في خاصرته فقال: «**بسم الله وبالله وعلى مِلّة رسول الله**» ورفع رأسه إلى السماء وقال: «**إلهي إنّك تعلم أنّهم يقتلون رجلاً ليس على وجهِ الأرض ابن بنت نبيٍّ غيري**»، ثمّ أخرَجَ السهم من قَفَاه فانبعث منه الدماء، وأخذ من ذلك الدم وخَضَّبَ به لحيته وقال: «**هَوَّنَ ما نزلَ بي أنّه بعين الله هكذا ألقى جدّي وأنا مُخَضَّبٌ بدمي**»، ولمّا أعياه نزف الدم جلس على الأرض ليستريح فانتهى إليه مالك بن النسر فشَتَمَهُ وضربه على رأسه، وكان عليه برنس فامتلئ دماً، فقال الحسين عليه السلام: «**لا أكلْتَ بيمينك وحَشَرَكَ الله مع الظالمين**» ونزع البرنس واعتمَّ بالقلنسوة.

ونظر إليه عبد الله بن الحسن الأصغر، وله إحدى عشرة سنة وقد أحْدَقَ به القوم وشدَّ ناحية عمّه، وأرادت عمّته حبسه، فأفلت منها وجاء إلى عمّه واحتضنه، فجاء بحر بن كعب ليضرب الحسين عليه السلام فصاح الغلام، ويلك

أتضرب عمّي، فضربه ضربة أتقاها الغلام بيمينه فقطعها، صاحَ الغلام يا عمّاه، قال له الحسين عليه السلام: **«صبراً يا ابن أخي على ما نَزَل بك فإنَّ الله يلحقك بآبائك الصالحين»**.. ثمّ رماه حرملة بسهم فذبحه في حجر عمّه وبقي الحسين عليه السلام مطروحاً ولو شاؤوا لقتلوه، إلاّ أنّ كلّ قبيلة تتّكِلُ على غيرها وتكرهُ الإقدام، فصاح شمر ما وقوفكم وما تنظرون بالرجل، وقد أثْخَنَتْهُ السهام والجراح إحملوا عليه.

واأســـفـــاهُ حَـمَـلـوا عليه ... مِـــنْ كـلِّ جـانـبِ أتَـــوْا إليهِ

وضربه زرعة بن شريك على كتفه، ورماه الحُصَين في حلقه، وطعنه سنان بن أنس في ترقوته، وطعنه صالح بن وهب في جنبه. ولمّا اشتدّ به الحال أخذ يدعو ربّه ويناجيه، ونظرت النساء إلى هذا المنظر فخرجن من الخيام مُعَوِّلات وبالصياح نائحات:

فـواحـدة تحنو عليه تضمُّهُ ... وأخـرى عليه بـالـرِّداءِ تُظَلِّلُ
وأخرى بفيضِ النَّحْرِ تصبغُ وجهَهَا ... وأخـرى تُفَدّيهِ وأخـرى تُقَبِّلُ
وأخرى على خوفٍ تلوذُ بجْنبِهِ ... وأخرى لِمَا قد نالها ليسَ تَعْقِلُ

ونادت زينب وامُحَمَّداه، واعَلِّيَاه، واجَعْفَراه، واحَمْزَتاه، ليت الجبال تَدَكْدَكَتْ على السهل، وهي تنظر إلى ابن سعد، وتقول: إي عمر أَيُقْتَل أبو عبد الله وأنتَ تنظُر إليه؟ فصَرَفَ بوجهه عنها، ثمّ ردَّهُنَّ الحسين عليه السلام إلى المخيّم. ونادى ابن سعد إنزلوا إليه وأريحوه فبدر إليه الشمر فرَفَسَهُ برجله، وجَلَسَ على صدره وقَبَضَ لحيته المقدّسة وضَرَبَهُ بالسيف واحْتَزَّ رأسه الشريف.

***

وتوارى نجم الحسين عليه السلام[1]

انجلت الغبرةُ، وهدأ صهيلُ الخيلِ، وسكتتِ الجيادُ عن الحَمْحَمَةِ، وخَبَتْ بوارِقُ السّيوفِ، وأسرعتِ الشّمسُ غَضْبى إلى زاويةِ المغيب، ها هو الحسينُ عليه السلام رجلُ العقيدة والمبدأ، سِبْطُ النبيّ، وريحانةُ الزهراء، قد أمسى مُقطَّعَ الأوصالِ، قد رُحّلَ رأسُهُ الطّاهِرُ، وها هو جسدُهُ الشّريفُ عارٍ قد سُلِبَ مِنْ كلِّ لباسٍ، لا يسترُهُ شيء غير غبار المعركة، وبِرْكة الدم الطّاهر الأبي.

المنظر كئيبٌ، والجريمة بَشِعَةٌ، وشلّالُ الدم، ينحدرُ في أرضِ الطّفوف. والأجسادُ أجساد القتلى، تتناثرُ في رحابِ الميدانِ تَناثُرَ النجوم في أُفقِ السّماء، أبو الشهداء، الحسين السبط عليه السلام وسبعة عشر من إخوته وأبنائه وأبناء عمومته وبني أخيه، وستّون من[2] أصحابه، يملأونَ أُفقَ الميدان، وعلى مَقرُبَةٍ من أرضِ المعركةِ قد ضربَ مُخيّم الحسين عليه السلام أطنابَهُ، ليسَ فيه إلاّ النِّسوةُ والأطفالُ الصِّغارُ، وإلاّ عليّ بن الحسين السجّاد عليه السلام، الذي قعدَ به المرضُ العضالُ عن البروزِ إلى ساحةِ القتال.

ثمّ أمر قائد الجيش عمر بن سعد مجموعةً مِنَ الفرسان أن يطأوا بحوافر خيولهم صدرَ الحسينِ وظهرَهُ، فداسوا الحسينَ حتّى رضّوا ظهرَهُ وصَدْرَه[3]، وها هيَ أوباشُ العسكرِ الأموي تتّجه بحقدٍ ووحشيّةٍ نحوَ مُخيّم النِّساء.

(١) الإمام الحسين بن علي الشهيد عليه السلام، دار التوحيد ص٢٠٣ وما يليها (بتصرّف).
(٢) ابن الصبّاغ المالكي/ الفصول المهمّة/ ص١٩٣، السيّد ابن طاووس/ مقتل الحسين/ ص٦٠.
(٣) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك/ ج٤/ ص٣٤٧، والسيّد ابن طاووس/ مقتل الحسين/ ص٥٦.

تعالى صراخُ النّسوة، واستولى الفزعُ على قلبِ المخيّمِ الكئيب، وتعلّق الصّغار المذعورون بأذيالِ الأُمهات البواكي، وسُلِبُ المخيّم وأُسِرَ مَنْ في نهارِ عاشوراء، لم يرحموا فيهِ طفلةً مفجوعةً، ولا أُمّاً ثكلى، ولا صبيّاً بريئاً، حتّى روى الطبري في الجزء الرّابع، صفحة ٣٤٦ من كتابه «تاريخ الأُمم والملوك»: أنّ «المرأةَ كانت لَتُنازَعُ ثَوْبَها عن ظَهْرِها حتّى تُغلَبَ عليه، فيُذهب بهِ منها».

وقُطِّعت الرؤوسُ[1]، رؤوسُ الشّهداء، وغُرِزَ بها رؤوس الرّماح، وتقاسم حملها القتلة الّذين شاركوا في صنع الجريمة. وسرى موكبُ الرؤوس يتقدّمها رأسُ الحسين عليه السلام على رأس رمح طويل، يحمله خِولّى بن يزيد الأصبحي، وحميدُ بن مسلم الأزدي، في حين وُكّل بباقي الرؤوس الأبيّة شمر بن ذي الجوشن، وقيس بن الأشعث، وعمرو بن الحجّاج، ساروا برؤوس آل محمّد، ورؤوس الكوكبة الأبيّة من أصحاب الحسين عليه السلام هدايا يتقرّبون بها إلى عُبيد الله بن زياد، والنّساء الثّواكل، والصّبية المُروّعة ينظرون إلى رؤوس الآباء والأزواج، والأبناء، والإخوة، والأحبّة ويودّعونها وهي تقطرُ دماً، وتُكتبُ أروع فصول التاريخ بحروف لم تزل تنضح بذلك الدم الطّاهر الأبيّ، وتُرتّل آيَ الشّهادة من فوق منابر الرّماح.

سرى موكب الرّؤوس يخترقُ جوفَ الصحراء، يقودُهُ أولئكَ القَتَلة، لِيَلْحَقوا بأميرِهم يزيد، ولِيُبَشّروه بالفجيعة، وليقدّموا إليه رأسَ الحسين عليه السلام والرّؤوسَ الطّواهِر هديّة يلتمسون لها ثمناً.

(١) ذكر ابن طاووس أنّ رؤوس أصحاب الحسين عليهم السلام كانت ثمانية وسبعين رأساً، فاقتسمتها القبائل لتتقرّب إلى عُبيد الله بن زياد والي يزيد بن معاوية بذلك، فجاءت كندة بثلاثة عشر رأساً، وصاحبهم قيس بن الأشعث، وجاءت هوازن باثني عشر رأساً، وصاحبهم شمر بن ذي الجوشن، وجاءت تميم بسبعة عشر رأساً، وجاءت بنو أسد بستّة عشر رأساً، وجاءت مذحج بسبعة رؤوس، وجاء باقي النّاس بثلاثة عشر رأساً، مقتل الحسين عليه السلام/ ص٦٠ و٦١. وذكر الشيخ المفيد في كتابه الإرشاد/ ص٢٤٣: أنّ أصحاب الحسين عليهم السلام كانوا (٧٢) رجلاً، وكذلك الطبري/ تاريخ الأمم والملوك/ ج٤/ ص٣٤٨.

مصارع الشُّهداء

بقيت تلك الجثث الزاكيات مطرّحةً في ميدان القتال، فهنا يربض جسد الحسين عليه السلام، وهناك يمتدّ جثمان أخيه العباس، وهنا تتحلّق نجومٌ من أجسام آل أبي طالب، وترقدُ جثامين كواكب الأنصار، فهم متناثرون يملؤون أرض المعركة، فكانت بهم سماءً، وكانوا فيها أنجماً.

لقد رحل السجّاد عليه السلام، وهو ينوء بحمل القيود وسلاسل الأسر، ويبعث بزفرات الحزن، وقلبُهُ يتلفّتُ، ويحومُ حولَ أرضِ المعركة؛ ودّع الموكبُ الأسيرُ جسدَ الحسين عليه السلام، وبقي خيالُ الشعراء، ولوعة الأدباء تحومُ حولَ الميدان وترسمُ بقوافيها لوحةَ الطفِّ حمراءَ داميةً تنضحُ بالدم، وتفيض بمشاعر الحزن واللّوعة، وتذكّي روح الكفاح والثورة:

جاؤوا برأسِكَ يا بنَ بنتِ محمّدٍ ... مُـتـرمِّـلاً بـدمـائِـهِ تَـرمـيـلا
وكأنّما بِـكَ يا بنَ بنتِ محمّدٍ ... قتلوا جِـهـاراً عامِدينَ رَسـولا
قتلوكَ عَطْشاناً ولمّا يَرْقبوا ... في قتلِكَ التأويلَ والتنزيلا
ويُـكَـبِّـرونَ بـأنْ قُتِلْتَ وإنّما ... قَتَلوا بِـكَ التكبيرَ والتهليلا

لنترك الشعراء في ناديهم ولننضم إلى أولئك الرجال من بني أسد، من سكّان الغاضرية، الّذين وقعت المعركة على مقربة من ديارهم، فقد خرجوا يتفحّصون القتلى، ويتسقّطون أنباء المعركة، بعد أنْ رحل جيش عمر بن سعد، وبقيتِ الجُثَثُ مُطرّحةً في مصارعها ثلاثة أيّام، تنتابُها الوحوشُ، وتلفَحُها حرارةُ الشمس المحرقة[1].

(١) السيد ابن طاووس/ مقتل الحسين عليه السلام/ ص١٦.

توجّه رجال من بني أسد:

«وكانوا نُزولاً بالغاضِريّة إلى الحسين عليه السلام وأصحابه، فصلّوا عليهم ودفنوا الحسين عليه السلام حيثُ قبرُهُ الآنَ، ودَفَنوا ابنَهُ عليّ بن الحسين الأصغر عليه السلام عند رجليه وحفروا للشّهداء من أهلِ بيتهِ وأصحابهِ الّذين صُرِعوا حوله ممّا يلي رِجْلَي الحسين عليه السلام وجمعوهم فدفنوهم جميعاً معاً، ودفنوا العبّاس بن عليّ عليه السلام في موضعه الّذي قُتِلَ فيه على طريق الغاضرية حيث قبرُهُ الآن»[1].

وهكذا ربضَ جسدُ الحسين عليه السلام، على مقربةٍ من شاطئ الفرات في أرض كربلاء[2] عَلَماً تهوي إليه الأفئدة، ومَناراً يُنيرُ الدّربَ للثوّارِ، والتحقَ هو بالشُّهداء والصدِّيقين والصّالحين والنبيِّين وحَسُنَ أولئكَ رفيقاً؛ بعد أن اختَطّ الدّربَ للثوّار، وثَبّتَ مبدأ الثورةِ طريقاً للأحرار.

(١) الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ص٢٤٣.

(٢) تقع مدينة كربلاء غرب نهر الفرات على أطراف صحراء الشام، تبعد حوالي (١٠٣ كيلو مترات) عن العاصمة العراقية بغداد، وفي كربلاء يشمخ ضريح الحسين عليه السلام آية في الروعة والجمال، وتعلوه القبّة والمآذن، ويكسوه الذّهب والفضّة، ويقصده الملايين من العالم الإسلامي زوّراً ومتبرّكين بحرمه الشريف في كلّ عام.

السّبايا العائدون

سارت الإبلِ تُطأطِئُ رؤوسَها حياءً، وهي تحملُ آل محمّد ﷺ أُسارى إلى عُبيد الله بن زياد. سارت نحو الكوفة بُعيد الظهر مِنَ اليوم الثاني من أيّام الفاجعة (اليوم الحادي عشر).

زحفَ الرّكب الأسير، وليس حوله إلاّ البيدُ والقِفارُ، وإلاّ أولئك القساة الجفاة القَتَلَة الّذين يتلذّذون بألم الأسارى، ونَدْبِ الصّبايا المفجوعة وعويل النّساء الفاقدات، وآلام عليّ بن الحسين وهو يحملِ أثقال السّلاسل، ويعاني من ذلك المرضِ العضال. دخل الرّكب الكوفة، ففزع مَنْ فيها، وخرجت الناس إلى الشّوارع والطّرقات، بين مُتسائلٍ لا يدري لِمَن السّبايا، وبينَ عارفٍ بِهَوْلِ الكارثة، يُكَفْكِفُ أدمعاً، ويضمرُ ندماً، ويحسُّ بعذابِ الضّميرِ، ولوعةِ الخذلان.

اخترق موكب آل محمّد ﷺ الفجيع جموع أهل الكوفة، متّجهاً إلى قصر الإمارة، وهم ينظرون ويبكون لِمَا حَلّ بالبيتِ النبويّ الكريم، ولِمَا اكتسبت أيديهم، وخَدَعَتْ وعودُهُم سبطَ رسول الله ﷺ وإمامَ المسلمين الحسين بن عليّ عليه السلام، وها هم يرون أهله ونساءه ونساء أصحابه سبايا أُسارى يُسامونَ سوءَ العذاب من آل زياد، وها هو رأس السّبطِ الشّهيد يُحلِّقُ في سماء الكوفة.

حدّقت زينب بنت عليّ بن أبي طالب في الجموع المحتشدة، ومرارة الفقد تملأ فمها، ودماء الحسين عليه السلام تجري أمام عينها، وذلّ الأسر يحيطُ بموكبها، نظرت إلى أهلِ الكوفة نظرةَ غضبٍ واحتقار، وخَطَبَتْهُم مُقَرِّعةً مؤنِّبة، بعد أنْ أشارت إليهم بالسكوت، فارتدّت الأنفاس وخَمِدتِ الأصوات ونكست

الرؤوسُ تنتظرُ سماعَ الكلمة التي ستقولها عقيلة بني هاشم، زينب، بنت فاطمة الزهراء، أُخت الحسين الشهيد، فتوجّهت إلى أهلِ الكوفة بقولها:

«الحمدُ للهِ والصَّلاةُ على أبي محمد وآله الطيّبين الأخيار. أمّا بعد، يا أهلَ الكوفة، يا أهلَ الختلِ والغَدْر؛ أتبكونَ، فلا رَقأتِ الدّمعة، ولا هَدأتِ الرنّةُ، إنّما مَثَلُكُم كمَثَلِ الّتي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعدِ قُوّةٍ أنكاثاً، تتّخِذونَ أيمانَكُم دخَلاً بينكم، ألا وهلْ فيكُم إلاّ الصَّلِفُ النَّطِفُ والصَّدْرُ الشَّنِفُ، ومَلَقُ الإماء، وغَمزُ الأعداء، أو كمرعىً على دِمنة، أو كفضّةٍ على مَلْحودةٍ، ألاَ ساءَ ما قدَّمَتْ لَكُم أنفسكم أنْ سَخِطَ الله عليكم، وفي العذابِ أنتم خالِدون، أتبكونَ وتنتحبونَ، إي والله فابكوا كثيراً، واضحكوا قليلاً، فلقد ذهبتُم بِعارِها وشنارِها، ولَنْ تَرْحَضُوها بغسلٍ بعدها أبداً، وأنّى ترحضونَ قتلَ سليلِ خاتم النبوّة، ومعدنِ الرّسالة، وسيِّدِ شبابِ أهل الجنّة، وملاذِ خيرتكم، ومَفْزعِ نازِلَتِكم، ومنارِ حجّتكم، ومَدرَةِ سُنَّتِكُم، ألا ساءَ ما تَزِرون، وبُعْداً لكم وسُحقاً، فلقد خابَ السَّعْيُ وتبَّت الأيدي، وخَسِرَت الصَّفْقَةُ، وبُؤتم بِغَضبٍ مِنَ الله، وضُرِبَت عليكُم الذِّلّةُ والمَسْكَنَةُ، ويلكم يا أهل الكوفة: أتدرونَ أيّ كبدٍ لرسولِ الله فريتُم، وأيّ كريمةٍ لهُ أبرزتُمْ، وأيّ دَمٍ لهُ سفَكْتُم، وأيّ حُرْمَةٍ لَهُ انتهكتُم، ولقد جئتُم بها صَلْعَاءَ عَنْقاءَ سَوداءَ فَقْماء ـ وفي بعضها ـ خَرْقاء شَوْهاءَ، كَطلاعِ الأرضِ أو ملءِ السّماء، أفعجبتُم أنْ مطرتِ السّماءُ دماً، ولَعذابُ الآخِرَةِ أخْزَى وأنتم لا تُنْصَرُون، فلا يَسْتَخِفنَّكُم المهلُ، فإنّه لا يحفِزُهُ البِدارُ، ولا يخافُ الثأر، وإنّ ربّكم لبالمِرصاد»[1].

(١) والخطبة في الفتوح لأعثم الكوفي/ ج٣/ ص١٤٠ و١٤١. الخوارزمي/ مقتل الحسين/ ج٢/ ص٤٠ـ٤٢.
الخَتْل: الخديعة. لا رقأت: لا جفّت. الرنّة: ارتفاع الصوت بالبكاء. نقضت غزلها من بعد قوّة أنكاثاً: مثل يضرب للتعبير عن الخيانة وعدم الوفاء بالعهد. أيمانكم دخلاً بينكم: تتّخذونها للمداهنة والغدر والخديعة. الصَّلِف: الّذي يدّعي ما ليس فيه ادّعاء متكبّر ومُعجَب بنفسه. النَّطِف: المتلطّخ بالعيوب. الشَّنِف: المبغض والمترفّع المتعال. ملق الإماء: كناية عن التملّق للحكّام كما تتملّق الجواري المملوكة لأسيادها. غمز الأعداء: طعن الأعداء. كمرعىً على دمنة: النبات الّذي ينبت على فضلات الحيوانات، مظهره جميل وجذوره متوغلة في القذارة والنجاسات. أو كفضّة على ملحودة: الفضّة التي تكون على القبر ظاهرها براق وليس تحتها إلاّ الموتى (فهي كناية عن الخديعة). شنارها: عارها وقبح عيوبها. لن ترحضوها: لن تزيلوها. مفزع نازلتكم: سيّدكم الّذي تفزعون إليه في المحنة. مدرة سنّتكم: زعيمكم المدافع عن سنّتكم. فريتم: شققتم وقطعتم. صلعاء، عنقاء،

وسارَ الموكب الحزين يخترق شوارع الكوفة، ويتّجه صوب قصر الإمارة، ليقف السبايا من آل محمّد ﷺ، ومن شاركهم محنة الطفّ وشرف الشهادة أمام عبيد الله بن زياد، وهو جالس في القصر، قد فتح أبوابه لاستقبال الناس وقبول التهاني بالنصر.

جلس وبين يديه رأس الإمام الحسين عليه السلام يعبث به ويضربه بقضيب في يده وعليه علامات الفرح والنّشوة. أثار هذا الموقف الدنيء شيخاً صحابياً مسنّاً (زيد بن أرقم) فصاح يا بن زياد وهو يضرب وجه الحسين عليه السلام بقضيبه:

«إرفع قَضِيبكَ عن هاتين الشّفَتين، فَوَالله الّذي لا إله غيرُهُ لقد رأيتُ شَفَتَي رسول الله ﷺ عَليهما ما لا أُحصيهِ، ثمّ انتَحَبَ باكياً، فقال ابن زياد: أبكى الله عَيْنَيْكَ، أتبكي لِفَتْحِ الله، ولولا أنّك شيخ قد خَرِفْتَ، وذهب عقلُك لَضَرَبْتُ عُنُقُك».

وقد اشتهر عن زيد أنّه قال عند خروجه وقد سمعه الناس: «أنتم يا معشرَ العرب! العبيدُ بعد اليوم، قتلتم ابنَ فاطمة، وأمّرتم ابنَ مرجانة، فهو يقتل خيارَكُم ويستعبدُ شرارَكُم، فرضيتُم بالذلّ، فبُعداً لمن رضي بالذل»[1].

وأُدخلت النِّساء والأطفال وعليّ بن الحسين السّجاد، على ابن زياد، فانبرى ابن زياد مخاطباً زينب عليها السلام، المرأة التي حملت راية الثورة والتعريف بأهداف الحسين عليه السلام (بعد استشهاده) طيلة حياتها التي لم تدم طويلاً، مخاطباً إيّاها وشامتاً بها:

«الحَمْدُللهِ الذي فَضَحَكُم وقَتَلَكُمْ وأَكْذَبَ أُحْدُوثَتَكُمْ»[2]

سوداء، قمماء، خرقاء: خطيرة ومكشوفة في سوئها وفظاعتها ومخالفتها. كطلاع الأرض: كملء الأرض. المهل: تأجيل العقوبة. البذار: المسارعة. لبالمرصاد: يراقبكم ويحصي أفعالكم.

(١) الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ص٢٤٣. الطبري/ تاريخ الأمم والملوك/ ج٤/ ص٣٤٩، وابن كثير/ ج٨/ ص١٩٠.

(٢) الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ص٢٤٤.

جاءه الردّ صاعقةً على لسان زينب «**الحمدُ للهِ الّذي أكرمَنا بنبيّه محمّد ﷺ، وطهّرنا من الرّجس تطهيراً**[1]، **إنّما يُفْتَضَحُ الفاسِقُ ويكذبُ الفاجِرُ وهو غيرُنا**. فقالَ ابن زياد: كيفَ رأيتِ فِعْلَ الله بأهلِ بيتك؟ قالت: **كتبَ الله عليهم القتلَ فبرزوا إلى مضاجِعِهم، وسيجمعُ الله بينكَ وبينهم فتُحاجّونَ إليه، وتَخْتَصِمون عنده**».

واستمرَّ الكلام سجالاً بين زينب وابن زياد، حتّى جيء بعليّ بن الحسين السجّاد عليه السلام ليقف أمام عبيد الله بن زياد. فتساءل ابن زياد: مَنْ أنت؟ أجاب الإمام السجّاد: **أنا عليّ بن الحسين**. سأل ابن زياد: ألَم يقتُلِ اللهُ عليَّ بن الحسين؟ فردّ السجّاد: **كان لي أخ يُسمّى عليّاً قتلَهُ الناس**. فقال ابن زياد: بل قتلَهُ اللهُ. فردّ السجّاد: «**اللهُ يتوفّى الأنفُسَ حينَ موتها**».

استثار موقفُ السجّاد الصّلبُ وردُّهُ المُواجهُ ابنَ زياد، فراح ينادي الجلاوزة: اضربوا عنقه. فتعلّقت عمّته زينب به وصاحت: «**يا ابن زياد! حَسْبُك من دمائنا، والله لا أُفارقهُ، فإنْ قتلته فاقتُلْني معه**»[2].

تراجعَ ابن زياد، وخرجَ من المجلس إلى المسجد ليخطب الناس ويُبَلِّغ بقتل الحسين عليه السلام وانتصار يزيد. سمعه عبد الله بن عفيف الأزدي[3]، يخطب الناس ويقول: «الحمدُ للهِ الّذي أظْهَرَ الحقَّ وأهْلَهُ، ونَصَرَ أميرَ المؤمنينَ يزيدَ وحِزبَهُ، وقتلَ الكذّابَ ابن الكذّابَ الحسين بن عليّ وشيعته»[4].

فاستشاطَ الأزدي غضباً، ووقف بجرأة الرّجال يتحدّى الصَّلَفَ والغُرورَ، ويمزّقُ أجواءَ الإرهاب الّتي فرضها السّيفُ والسّوطُ، فردّهُ ردّاً عنيفاً قائلاً: «يا ابن

(١) تشير إلى الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣]
الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ص٢٤٤.
(٢) الشيخ المفيد/ الإرشاد/ ص٢٤٤.
(٣) كان عبد الله بن عفيف الأزدي من الموالين للإمام عليّ عليه السلام ولأهل بيته.
(٤) المصدر نفسه.

مرجانة! إنّ الكذّاب ابن الكذّاب أنتَ وأبوكَ والّذي ولّاكَ وأبوه، يا ابن مرجانة! أتقتِلُونَ أبناءَ النبيّين وتتكلّمونَ بكلام الصِّدّيقين»[1].

ولم يهدأ غَضَبُهُ وحِقْدُهُ، بل لاذَ بالغَدْرِ، فبعثَ بمجموعةٍ من جلاوزتِهِ لتغير على الأزدي وتُخرجه من بيته، ثم قُتِلَ وصُلِبَ، فراحَ شهيداً يُردِّد كلمة الحق، ويَجْبَهُ بها وجه الطّغاة.

أُعيد الرّأس الشّريف إلى القصر، تقدّم رأسُ الحسين عليه السلام رؤوسَ الكوكبة التي خُلِّفتْ أجسادها في صحراء الطّف، وراحَ الموكب الألق يخترق صحراء العراق.

وسارَت خلفه زينب عليها السلام والتحقّ ركب النِّساء والأطفال والسجّاد عليّ بن الحسين، الّذي وُضِعَت السّلاسل بيدِه وجُمِعَت إلى عنقه[2] وحُمِلوا جميعاً على «أقتابِ الإبلِ الّتي كانت بغيرِ وِطاء»[3].

التحقوا بموكب الرؤوس الّذي سبقهم في المسير، وراحوا يسيرون سواءً إلى جنب رأس الحسين عليه السلام إلى دمشق عاصمة الخلافة، بناءً على أوامر صادرة من يزيد بن معاوية كتبها في رسالة إلى ابن زياد قال فيها: «سَرِّح الأسارى إليَّ»[4]، فقد أراد هذه المرّة أنْ يُنفِّسَ عن حقدِهِ برؤيتِهِ عائلةَ رسول الله صلى الله عليه وآله تقفُ أمامه وهي في القيود والسّلاسل.

(١) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك/ ج٤/ ص٣٥١، وابن الأثير/ الكامل في التاريخ/ ج٤/ ص٨٣، وقد فصّل أعثم الكوفي في كتابه (الفتوح) الملحمة الرائعة للأزدي هذا واستشهاده، انظر ج٣/ ص١٤٤ وما بعدها.

(٢) ابن الأثير/ الكامل في التاريخ/ ج٤/ ص٨٣: «قد جعل ابن زياد الغِلّ في يديه ورقبته».

(٣) م.ن أعثم الكوفي/ الفتوح/ ج٣/ ص١٤٧.

الأقتاب: هو الرّحل الّذي يوضع على ظهر الدّابّة، وبغير وطاء: غير ممهّد ولم يوضع عليه ما يخفّف من خشونته ووعورته من قماش وغيره.

(٤) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك/ ج٤/ ص٣٥٤، وابن الأثير/ الكامل في التاريخ/ ج٤/ ص٨٤.

في عاصمة الخلافة الأمويّة (دمشق)

ابتهاجاً بقتل ابن بنت رسول الله ﷺ، فقد أمر الخليفة يزيد بتزيين العاصمةِ وتعليق الزِّينةِ وتسييرِ مجاميعَ مِنَ الرّاقصاتِ في الشّوارع وهُنّ يرقُصْنَ على أنغامِ الطّبول والدّفوف[1].

واجتاز موكبُ السّبايا والرّؤوسِ شوارعَ المدينة، حتّى وصل إلى بلاط يزيد، الّذي كان مَزْهوّاً بقتله للحسين، ثمّ جيء برؤوس الشُّهداء يتقدّمها رأسُ الحسين عليه السلام، وكان بِيَدِ يزيد قضيبٌ فجعل يضربُ به فَمَ الحسين عليه السلام، «فقال رجلٌ من أصحابِ رسول الله ﷺ يُقال له أبو بَرزة الأسلمي: أتنكتُ بقضيبكَ في ثغرِ الحسين؟ أما لقد أخذَ قضيبُكَ مِنْ ثغْرِهِ مَأخذاً لربّما رأيتُ رسولَ الله ﷺ يرشفُهُ، أما إنّك يا يزيد تجيء يوم القيامة ابنُ زياد شفيعك، ويجيء هذا يوم القيامة ومحمّد ﷺ شفيعه، ثمّ قام فَوَلّى»[2].

وقد رافقَ وصول سبايا آل بيت رسول الله ﷺ إلى دمشق أيضاً حملة إعلامية مضلِّلة، تقول: إنّ أولئك السّبايا خوارج خرجوا على الخليفة الشرعي يزيد فقتلهم وجِيءَ بنسائهم وأطفالهم، وأشاعوا ذلك بين الجماهير، وأمروها بإظهار معالم الزّينة والفرح، وقد صدّق بعض الناس ذلك حتّى أنّ المؤرّخين رووا الواقعة التالية:

---

(١) فصّل ذلك الخوارزمي الحنفي في كتابه مقتل الحسين/ ج٢/ ص٦٠ و٦١ برواية عن الصحابي الجليل سهل بن سعد الّذي اتّفق مروره آنذاك ببلاد الشام فوصف ما رآه.

(٢) الطبري/ تاريخ الأمم والملوك/ ج٤/ ص٣٥٦، ابن الأثير/ الكامل في التاريخ/ ج٤/ ص٨٥، الخوارزمي/ مقتل الحسين/ ج٢/ ص٥٨، وابن كثير/ ج٨/ ص١٩٢.

«أُتِيَ بحرمِ رسول الله ﷺ حتّى أُدخلوا مدينة دمشق من بابٍ يُقالُ له باب توماء، ثمّ أُتي بهم حتّى وقفوا على درج باب المسجد حيث يُقام السّبي، وإذا بشيخ قد أقبلَ حتّى دنا منهم وقال: الحمد لله الذي قَتَلَكُم وأهْلَكَكُم وأراح الرِّجالَ مِن سَطْوَتِكُم وأمْكَنَ أميرَ المؤمنين منكم.

فقال له عليّ بن الحسين: **يا شيخ! هل قرأت القرآن؟** فقال: نعم، قد قرأتُهُ. قال: **فعرفتَ هذه الآية:** ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ [الشورى: ٢٣] ؟ قال الشيخ: قد قرأت ذلك. قال عليّ بن الحسين عليه السلام: **فنحنُ القُربى يا شيخ،** قال: **فهل قرأتَ في سورة بني إسرائيل:** ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴿٢٦﴾﴾ [الإسراء: ٢٦]؟ قال الشيخ: قد قرأتُ ذلك. فقال عليّ عليه السلام: **نحنُ القُربى يا شيخ، ولكن هل قرأتَ هذه الآية:** ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [الأنفال: ٤١]؟ قال الشيخ: قد قرأتُ تلك. قال عليّ: **فنحن ذو القربى يا شيخ، ولكن هل قرأتَ هذه الآية:** ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ قال الشيخ: قد قرأتُ ذلك. قال عليّ: **فنحنُ أهل البيت الّذين خُصصنا بآية الطّهارة.**

فبقي الشيخ ساعة ساكتاً نادماً على ما تكلّمه، ثمّ رفع رأسه إلى السماء وقال: اللّهمّ إنّي تائبٌ إليك ممّا تكلّمتُهُ، ومِن بُغض هؤلاء القوم، اللّهم إنّي أبرأُ إليكَ مِن عدوٍّ محمد وآل محمد مِنَ الجِنّ والإنس»[1].

ولنعد إلى مجلس يزيد لنشاهد ما وقع فيه. عندما أُوقف عليّ بن الحسين مع السبايا بين يديّ يزيد، فقال له يزيد: «أراد أبوك وجدّك أنْ يكونا أميرين، فالحمد لله الذي أذلّهما وسفك دماءهما، فقال عليّ بن الحسين: **يا ابنَ معاوية وهندٍ وصَخرٍ، لم يَزلْ آبائي وأجدادي فيهم الإمرة مِن قبلِ أنْ تولَد، ولقد كان جدّي**

(١) أعثم الكوفي/ الفتوح/ ج٣/ ص ١٥١ و١٥٢. الخوارزمي/ مقتل الحسين/ ج٢/ ص٦١.

عليّ بن أبي طالب عليه السلام يوم بدر وأُحُد والأحزاب في يدهِ رايةُ رسول الله صلى الله عليه وآله، وأبوك وجدّك في أيديهما راياتُ الكفّار، ثمّ جعل عليّ بن الحسين يقول:

ماذا تقولون إذ قالَ النَبيُّ لَكُمْ ... مـاذا فعلتُم وأنتُم آخِـرُ الأُمَـمِ

بعترتي وبأهلي بعدَ مُنْقَلبي ... منهم أُسارى ومنهم ضُرِّجوا بِدَمِ

ما كان هذا جزائي إذ نصحتُكُمُ ... أنْ تُخْلِفوني بسوءٍ في ذوي رَحِمي

ثمّ قال عليّ بن الحسين عليه السلام: **ويلك يا يزيد، إنّك لو تدري ما صنعتَ وما الّذي ارتكبتَ من أبي وأهلِ بيتي وأخي وعمومتي إذاً لهربتَ في الجبالِ وفَرَشتَ الرّمادَ، ودعوت بالويلِ والثُبورِ، أن يكونَ رأسُ الحسين ابن فاطمة وعليّ عليهما السلام منصوباً على باب المدينة، وهو وديعة رسول الله صلى الله عليه وآله فيكم، فأبشر بالخزي والندامة غداً إذا جُمعَ الناسُ ليومٍ لا ريبَ فيه.**

فالتفتَ حَبْرٌ من أحبار اليهود وكان حاضراً فقال ليزيد:

مَنْ هذا الغلامُ يا أمير المؤمنين؟ فقال: هذا صاحبُ الرّأسِ هو أبوه، قال: ومَن هوَ صاحبُ الرّأسِ يا أمير المؤمنين؟ قال: الحسين بن عليّ بن أبي طالب، قال فمَنْ أُمّه؟ قال: فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله، فقال الحبر: يا سبحان الله، هذا ابنُ بنتِ نبيِّكم قتلتُموه في هذه السرعةِ؟ بِئْسَ ما خلفتُموهُ في ذُرِّيتِهِ، واللهِ لو خلّف فينا موسى بن عمران سِبْطاً مِنْ صُلبِهِ لكنّا نعبدُهُ من دون الله، وأنتم إنّما فارقكم نبيّكُم بالأمس، فوثبتُم على ابن نبيّكم فقتلتُموه، سوأةً لكم مِن أُمّة، فأمرَ يزيد به فوجِئَ بحلقِهِ ثلاثاً، فقام الحَبْرُ وهو يقول: إنْ شِئتُم فاقتلوني، وإنْ شِئتُم فَذَروني، إنّي أجدُ في التوراة: مَن قتَلَ ذرّيةَ نبيّ، فلا يزالُ مغلوباً أبداً ما بقي، فإذا ماتَ يُصليه اللهُ نارَ جهنّم»[1].

وقد روى المؤرّخون خطبة للعقيلة زينب بنت عليّ عليها السلام، خاطبت بها يزيد وهو في بلاطه ينفّسُ عن أحقاده برؤيته أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله مكبّلين بالقيود والأصفاد يلبسون الرّثّ من الثّياب وهي:

(١) أعثم الكوفي/ الفتوح/ ج٣/ ص١٥٣ و١٥٤، الخوارزمي/ مقتل الحسين/ ج٢/ ص٧١.

«الحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على رسوله وآله أجمعين، صدق الله سبحانه حيث يقول: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الروم: ١٠]، أظننتَ يا يزيدُ أنّك أخذتَ علينا أقطارَ الأرض وآفاقَ السماء، فأصبحنا نُساقُ كما تُساقُ الأسارى، أنّ بنا على اللهِ هَواناً وبكَ عليه كرامة وأنّ ذلك لِعظمِ خَطَرِكَ عنده؟ فشمختَ بأنفِكَ ونظرتَ في عِطفِكَ، جَذلان مسروراً، حين رأيتَ الدُّنيا لكَ مُسْتَوْسِقة والأمور مُتّسِقة، وحين صفا لكَ ملكُنا وسُلطانُنا، فمهلاً مهلاً، أنسيتَ قولَ الله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

أمِنَ العَدْلِ يا ابنَ الطُّلقاءِ، تَخديرُكَ حَرائِرَكَ وإماءَكَ، وسوقُكَ بناتِ رسول الله سبايا، قد هُتِكَتْ سُتُورُهُن، وأُبْدِيَتْ وُجُوهُهُنّ، تحدو بهنَّ الأعداءُ مِن بلدٍ إلى بلدٍ، ويَسْتَشْرِفُهُنّ أهلُ المناهلِ والمعاقلِ، ويتصفّحُ وُجُوهَهُنّ القريب والبعيد والدنيُّ والشريف ليس معهنَّ من حماتهنَّ حميٌّ ولا من رِجالهنّ وليٌّ، وكيفَ يُرتجى مُراقبةُ مَنْ لفظ فوهُ أكبادَ الأزكياء، ونبتَ لحمُهُ مِن دماءِ الشُّهداء، وكيفَ يُستبطأُ في بُغْضِنا أهلَ البيتِ مَن نَظرَ إلينا بالشَّنَفِ والشَّنَآنِ، والإحنِ والأضغانِ، ثمّ تقول غيرَ مُتأثّم ولا مُسْتَعْظِم:

لَأهـلّـوا واسْـتَـهـلّـوا فَـرَحـاً ... ثـمَّ قـالـوا يـا يـزيـدُ لا تُـشَـلّ

مُنحنياً على ثنايا أبي عبد الله سيّد شبابِ أهل الجنّة تُنكُتُها بمِخْصَرَتِكَ، وكيفَ لا تقول ذلك، وقد نكأتَ القُرحةَ، واسْتأصَلْتَ الشأفَةَ، بإراقَتِكَ دماءَ ذرّية محمد ﷺ ونجوم الأرضِ مِن آلِ عبد المطّلبِ، وتهتفُ بأشياخِكَ، زَعمتَ أنّكَ تُناديهم، فَلَتَرِدَنَّ وَشيكاً مَوْرِدَهُم، وَلَتَوَدَّنَّ أنّكَ شُلِلْتَ وَبَكُمْتَ ولم تكُن قُلْتَ ما قُلْتَ وفَعَلْتَ ما فَعَلْتَ.

اللّهمّ خُذْ لنا بِحَقِّنا، وانتَقِمْ مِمَّنْ ظَلَمَنا، واحلُلْ غَضَبَكَ بِمَنْ سَفَكَ دِماءَنا، وقَتَلَ حُماتَنا.

فوَالله ما فريتَ إلاّ جِلْدَك، ولا حَزَزْتَ إلاّ لَحْمَكَ، ولَتَرِدَنَّ على رسول الله ﷺ بما تحمّلتَ مِن سفكِ دماءِ ذرّيّته، وانتهكتَ مِن حُرْمَتِهِ في عترتِهِ ولُحْمَتِهِ، حيث يجمعُ الله شملَهُم، ويلمُّ شَعثَهُم، ويأخذُ بحقِّهم ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وحسبُك باللهِ حاكماً، وبمحمّدٍ ﷺ خصيماً، وبجبرئيلَ ظهيراً، وسيعلمُ مَنْ سَوّلَ لَكَ ومَكّنَكَ مِن رقابِ المسلمين بئسَ للظّالمين بدلاً، وأيّكم شرٌّ مكاناً، وأضعفُ جنداً.

ولئن جرَّتْ عَلَيَّ الدّواهي مُخاطَبَتك، إنّي لأسْتَصْغِرُ قَدْرَكَ، وأَسْتَعْظِمُ تَقْريعَكَ، وأستكْثِرُ توبيخَكَ، لكنِ العيونُ عَبْرى، والصّدورُ حَرّى.

ألا فالعجبُ كلُّ العجبِ، لِقَتلِ حزبِ اللهِ النُّجَباء، بحزبِ الشّيطانِ الطُّلقاء، فهذه الأيدي تنطفُ مِن دمائِنا، والأفواهُ تتحلّبُ مِنْ لُحومِنا، وتلكَ الجثثُ الطّواهِرُ الزّواكي تنتابها العواسِلُ، وتُعفّرها أمّهاتُ الفراعِلُ، ولئن اتّخذتنا مَغْنَماً، لَتَجِدَنّا وشيكاً مَغْرَماً، حين لا تَجِدُ إلاّ ما قدّمَتْ يَداكَ، وما ربُّك بظلّامٍ للعَبيد، وإلى اللهِ المُشتكى وعليهِ المُعَوّل.

فكِدْ كَيْدَك، واسْعَ سَعْيَكَ، وناصِبْ جُهْدَكَ، فوَالله لا تمحو ذِكْرَنا، ولا تُميتُ وحيَنا، ولا يَرحَضُ عنكَ عارُها، وهل رأيُكَ إلاّ فَنَدٌ، وأيّامُك إلاّ عَدَدٌ، وجمعك إلاّ بَدَدٌ، يومَ يُنادي المنادي ألاَ لعنةُ اللهِ على الظّالمين.

والحمد للهِ ربّ العالمين، الذي خَتَمَ لأوّلِنا بالسّعادةِ والمغفرةِ، ولآخرِنا بالشّهادةِ والرّحمة، ونسألُ الله أنْ يُكمِلَ لهم الثّوابَ، ويوجِبَ لهم المزيدَ، ويُحسِنُ علينا الخلافةَ، إنّهُ رحيمٌ وَدودٌ، وحسبنا الله ونِعْمَ الوكيل»[1].

(١) العاملي، السيّد محسن الأمين/ أعيان الشيعة/ ج١/ ص٦١٦/ طبعة دار التعارف (بيروت)/ ١٤٠٣ هـ.

وعلى أيّةِ حال فقد استقرّ السجّاد ومَن صاحَبَهُ مِن بقايا الفاجعة فترة في الشّام، ثمّ سلكوا طريق العودة إلى المدينة، واتّخذت رؤوس الشُّهداء طريقَها إلى كربلاء لِترقُدَ إلى جوارِ الأجساد.

دخلَ السجّاد عليه السلام المدينةَ وقد سبقه نبأ الفاجعة، فَضَجّتِ المدينة بأهلها، واتّشحت بوشاحِ الحزن والغضب وهي تسمع صوت الناعي (بِشْرِ بنِ حَذْلَم) يُردِّد:

يا أهلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لكم بها ... قُتِلَ الحُسينُ فأدمعي مِدْرارُ

اَلجِسمُ منُه بكربلاءَ مُضَرَّجٌ ... والرّأسُ منهُ على القَناةِ يُدارُ

وهكذا عاشت المدينة الحُزنَ والغضبَ، حتّى أعلنت ثورتَها ورفضها للحكم الأموي بقيادة عبد الله بن حنظلة، ودفعت الثمنَ باهظاً بحبِّ الحسين والولاءِ لأهلِ البيت عليهم السلام.

والجدير ذكره أنَّ كلّ القيادات العسكرية والسياسية والتي تخلّت عن نصرة الحسين عليه السلام وقع عليها العذاب في الدنيا قبل الآخرة، وكانوا عبرةً لمن يعتبر.

محتويات الكتاب

المقدّمة ٥
عليٌّ عليه السلام في مواجهة أعداء الحقّ ٧
اغتصاب الخلافة وصُلح الإمام الحسن عليه السلام ٩
واقعٌ جديدٌ بعيدٌ عن جوهر الإسلام الأصيل ١٢
.. وجاء دور الحسين عليه السلام ١٤
لماذا قام الإمام الحسين عليه السلام بالثورة؟ ١٦
خروج الحسين من المدينة إلى مكّة ٢٥
وصيّته إلى أخيه محمد بن الحنفية ٢٦
كتابه إلى بني هاشم ٢٧
الحسين عليه السلام في الطريق إلى مكّة ٢٩
هدف الإمام الحسين عليه السلام من القدوم إلى مكّة ٣١
مراسلات أهل الكوفة للحسين عليه السلام ٣٢
نصائح أُسديت للحسين عليه السلام في غير موقعها ٣٨
خوف السلطة الأمويّة من وجود الحسين عليه السلام في مكّة ٤١
قلق يزيد ٤٢
جواب ابن عبّاس ٤٣
إرسال مسلم بن عقيل سفيراً للحسين عليه السلام إلى الكوفة.. ..... ٤٤
وصول عبيد الله بن زياد إلى الكوفة ٤٨
تفرّق الناس عن مسلم بن عقيل ٥٠
إلى العراق ٥٥
اضطراب وخوف الأمويّين من مسير الحسين عليه السلام ٥٨

إلـى كـربـلاء ٦٥
عمر بن سعد وإيثاره حبُّ الدنيا على حبّ الله ٦٧
دور الشمر بن ذي الجوشن في إحباط مشروع العودة ٦٨
نُذُر الشرّ الشيطاني ٦٩
ليلة العاشر من المحرّم، عبادة ووفاء وإخلاص ٧١
معركة كربلاء ٧٥
وتوارى نجم الحسين عليه السلام ٩٤
مصارع الشُّهداء ٩٦
السّبايا العائدون ٩٨
في عاصمة الخلافة الأمويّة (دمشق) ١٠٣
.. إلـى المدينـة ١٠٨